اغتيال الحرية

وتداعياته على أهل السُّنة

بقلم

محمد سرور زين العابدين

ملحوظة: إطار صفحات الغلاف يصور باللون الأسود

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

اغتيال الحريري

وتداعياته على أهل السنة

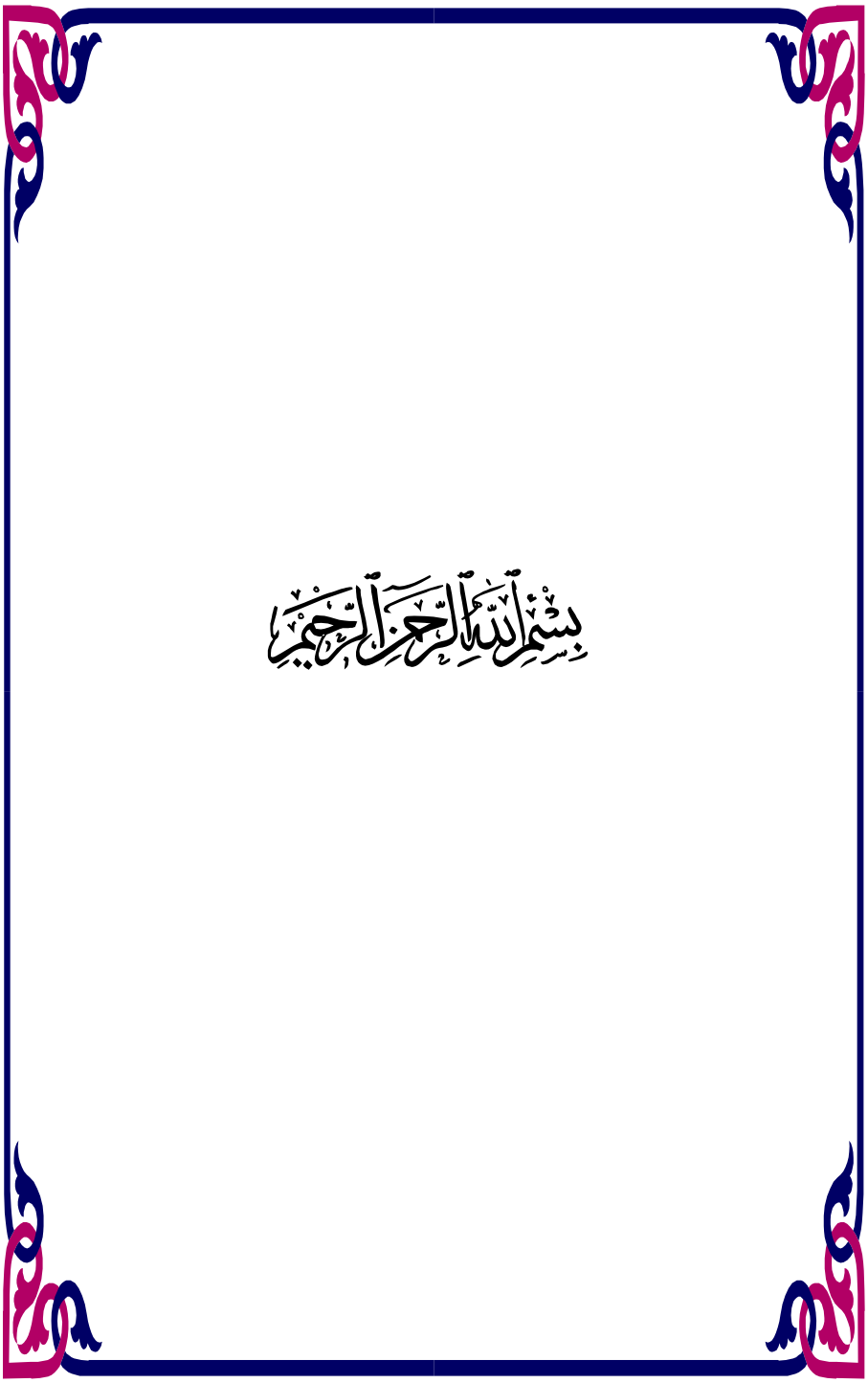
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد قتل رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري، ومن كان في موكبه...وقتل من قبله العالم العامل مفتي لبنان الشيخ حسن خالد، وقتل قبل هذا وبعده عشرات الآلاف من جميع مدن ومخيمات وأرياف لبنان، كان من بينهم؛ علماء أفاضل ودعاة كرام وشيوخ مسنون وأطفال صغار...وقتل أكثر من هذا العدد في سورية.

في لبنان تعدد القتلة المجرمون خلال ما يقارب الثلاثين عاماً، ولكن الباطنيين الغزاة وحلفائهم كانوا أشد تنكيلاً بالمسلمين من أي عدو آخر.

وعندما نتحدث عن هذه الاغتيالات، فنحن لا نخاطب الأموات، لأن صفحات أعمالهم قد طويت، ولن ينفعهم في قبورهم ويوم يعرضون على ربهم إلا عملهم الصالح، فنسأل الله لهم العفو والمغفرة.

فللأحياء نقول:

كان اغتيال الحريري من أهم الأحداث التي شهدها لبنان في تاريخه المعاصر؛ فالعالم بأسره لم يحفل باغتيال رياض الصلح، وبشير الجميل، ورينيه معوض مثلما حفل باغتيال الحريري، وفضلاً عن ذلك فقد فجر هذا الحدث الخطير انتفاضة ضد الاحتلال السوري شارك فيها جميع المواطنين-مسلمين ونصارى- لا نستثني من ذلك إلا الشيعة، ومجموعة أخرى من عملاء النظام السوري، قليلة العدد ضعيفة التأثير.

أدرك المسلمون السُّنة أن اغتيال الحريري يستهدفهم -دون غيرهم من طوائف لبنان- في وجودهم ودورهم وكرامتهم، بل هم مستهدفون منذ دخول قوات الغزاة

الباطنيين إلى لبنان... وقرروا على لسان مفتيهم العام وكبار علمائهم ووزرائهم ورؤساء وزاراتهم السابقين وجميع أهل الحل والعقد فيهم:

(بأنه قد نالهم من الضيم ما يكفي، ومن الصبر ما لم يعد يحتمل...)[1].

ولهذا قادوا الانتفاضة ضد القوات السورية الباطنية في لبنان، واجتمعت كلمتهم في الانتخابات على اختيار سعد بن رفيق الحريري وقائمته، وهم الذين لا يعرفون سعداً، ولا يدرون ما هو فاعل غداً، وهل سيخذلهم كما خذلهم أبوه من قبل؟

كل الذي أرادوه الانتقام من الباطنيين والانتصار لرفيق الحريري في قبره... فهل يستمر هذا الشعور، أم سوف يعتريه النسيان، وسوء قراءة وفهم للأحداث التي تمر بأمتنا؟!

ولكن: كيف أخلص رفيق الحريري للنظام الطائفي النصيري؟ وكيف أسرته شخصية حافظ الأسد، وصار يعد نفسه من أعز أصدقائه؟

فهاكم الجواب على ذلك:

ورث الباطنيون المعاصرون عن مؤسسي ديانتهم القاعدة التالية، التي وصفها علماء الأمة بقولهم: (يميلون إلى كل قوم بسبب يوافقهم، ويميزون من يمكن أن يخدعوه ممن لا يمكن).

ومن أجل خداعنا وتضليلنا فقد انتسب الباطنيون، ثم هيمنوا على أحزاب ترفع الشعارات البراقة: الوحدة العربية، التحرر من الاستعمار، الحرية، الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية، تحرير فلسطين ومقاومة الأطماع والمخططات الصهيونية والأمريكية.

وممن نادى بهذه الشعارات حزب البعث، وجمال عبد الناصر، والأحزاب القومية في الوطن العربي.

---

(١) سيأتي ذكر هذا البيان.

وإذا كان الذين يرفعون هذه الشعارات استمالوا كبار السياسيين والمفكرين العرب، فلماذا لا تستهوي رفيق الحريري الذي تربى في أحضان القوميين واليساريين؟

لا أشك بأن الحريري كان بعد حين من بداية تعامله مع الباطنيين قد تعلم الكثير عنهم، كان كل من حركة أمل، وما يسمى بحزب الله، والنظام السوري النصيري يقولون له شيئاً ويفعلون خلافه، كان يرى بعينيه مكرهم وخداعهم وتقيتهم التي تجعلهم من أكذب الناس، كان يفضي بسريرته لأقرب الناس إليه من أبنائه وأصحابه، ورغم ذلك فقد كان يهرب إلى الأمام، يقدم إليهم الأموال والخدمات، يتوسط لهم في المحافل الدولية، قال عنه أحد الذين يعرفون البيت من داخله: «كان الحريري وزيراً للخارجية السورية قبل أن يكون رئيساً لوزراء لبنان».

أسد «الأب» كان داهية، يضبط عواطفه، ويجيد استخدام التقية، ولكن أسداً «الابن» أحمق متعجل وانفعالي شديد التأثر بما يهمس به إليه مستشاروه وأصدقاؤه، ولهذا أسفر عن وجهه الباطني الكالح في تعامله مع الحريري، وراح يتهدده ويتوعده، فلم يبق مجال أمام الحريري ليهرب إلى الأمام، ثم كان ما كان، وقضى الحريري نحبه دون أن يسجل لنا تجربته، ولو شاء لكتب مجلدات عن مكر الباطنيين وخداعهم، ولكنه وثق بكلام أصدقائه الذين قالوا له: لا تخش، لن يُقدِموا على اغتيالك! وهذه منه غفلة مؤسفة.

ومثل الحريري مئات من العسكريين والسياسيين والمفكرين والتجار الذين كانوا شركاء بل ورؤساء لأحفاد: ابن نصير، وابن العلقمي، وابن الطوسي، ثم انتهى بعضهم إلى ما انتهى إليه الحريري، وبعضهم الآخر كان مصيره السجن أو النفي، فإلى متى لا ينتفع هؤلاء بتجارب من سبقهم؟ وإلى متى يُخادعون أنفسهم زاعمين أنهم علمانيون، ولا يؤمنون بالطائفية؟

نعم، أنتم علمانيون، ولا شأن لكم بالسُّنة ولا بصاحبها -عليه أفضل الصلاة والتسليم-، ولكنكم في حسابات ومقاييس الباطنيين أنتم أهل سنة حتى ولو خرجتم

من جلودكم، وناس منكم يكتشفون هذه الحقيقة المرة في وقت لا ينفع فيه الندم.

لي صديق التقيه في فترات متباعدة، وهو من حَمَلة الفكر القومي بشتى أبعاده الناصرية والبعثية واليسارية، وكان يعجبني فيه صراحته فيما يكتب، وسلامة فطرته، قلتُ له ذات مرة: يا فلان أتعجَّب مما ينشرُ في صحيفتكم، ففي بعض الأحيان أقرأ فيها إشادة بتصريح أدلى به أسد -الأب كان أو الابن- وثناء على النظام، وفي أحيان أخرى أقرأ نقداً للأسد ونظامه، فكيف أجمع بين هذا وذاك؟ فأجابني ما خلاصته: نحن نتعامل مع الخير، ونتفاعل معه، وإذا كان يتفق مع قضايا أمتنا المصيرية أثنينا عليه أو أثنى عليه كتاب آخرون من أصدقاء الصحيفة، وإذا كان الخبر أو الموقف خلاف ذلك نقدنا الأسد ونظامه.

قلت: هذا يعني أنكم تتعاملون مع ظاهر التصريح الذي يصدر عن زعماء هذا النظام، وتغضون الطرف عن تاريخه الملوث، وعقيدته الباطنية.

قال: أمامنا خبر، تصريح، بيان، نفهمه حسب قواعد وآداب اللغة العربية، ونحن أبناؤها، ثم حسب خبرتنا، أما هذه الباطنية التي أسمعك تكرر النطق بها، فلا نأبه بها، ولا نقم لها وزناً، ثمة أمر آخر لا أظنه يغيب عن ذهنك: عوَّدنا هذا النظام بين الحين والحين الآخر على اتخاذ مواقف قوية ضد الأطماع والمخططات الأمريكية-الصهيونية التي تستهدف بلادنا، فكيف لا نبرزها لا سيما ونحن مقهورون، ونعيش عصر الصمت العربي المؤسف.

قلت: صديقي العزيز، لو كان الأمر لي، لجمعت السياسيين والمفكرين والإعلاميين العرب ونظَّمت لهم دورة «كورس» ولجعلت للدورة موضوعاً واحداً لا نتجاوزه إلى غيره، اللهم إلا ما يقتضيه التوضيح والاستطراد، وضرب الأمثلة من القديم والحديث، هذا الموضوع هو «الباطنية» التي قلت لي قبل قليل: سمعتك تكرر النطق بها، ثم جئت بأساتذة علماء متخصصين في الفرق والتاريخ، ثم نبدأ المقرر بتدريس الطلبة نشأة الفرق الباطنية، وعقيدتهم التي يدينون بها، وصلتها الوثيقة بعقائد المجوس، وأساليبهم في الخداع والتضليل وكرههم الشديد للعرب،

وقادة العرب من الصحابة والتابعين الذين أعز الله بهم دينه، أو يدرسونهم كتاب«فضائح الباطنية» لأبي حامد الغزالي، وهو عالم جليل عاش في القرن الخامس الهجري، وكان قريب العهد من انتعاش هذه الفرق، وما شهده العالم الإسلامي من فرقة ودمار وتخريب على أيدي جيوش هذه الفِرَق، ولا بد من إضافة شروح وتعليقات على كتاب الغزالي يقتضيها ما جد في هذا العصر وفي العصور التي تلت عصر الغزالي وبالأخص الخدمات التي قدموها للصليبيين والتتار.

هؤلاء الباطنيون، وتحديداً أتباع: ابن نصير، والعلقمي، والطوسي، والدرزي:

يرفعون شعار القومية العربية، وهم شعوبيون، يكرهون العرب والعربية.

ينادون بالوحدة العربية، وهم من ألد أعدائها لأنهم يخشون أن تتلاشى كياناتهم الطائفية في ظل الوحدة العربية.

يدعون إلى تحرير فلسطين، والقضاء على الكيان الصهيوني، وفي الخفاء يمدون أيديهم للصهاينة فيتعاونون وينسقون معهم، ولا يجوز لنا أن ننسى أو نتناسى المذابح الفردية والجماعية التي ارتكبها هؤلاء الباطنيون في المخيمات الفلسطينية بلبنان، ولا سياسة القَتْل والاعتقالات العشوائية، التي مارسوها ضد الفلسطينيين في سورية، ومن أبشع سجون المخابرات السورية ما أسمَوْه «فرع فلسطين».

وهم اليوم الذين تحالفوا مع من يسمونه الشيطان الأكبر، وقدموا له كل أنواع الدعم والمساعدة من أجل احتلال قواته العسكرية للعراق، كما فعل أجدادهم من قبل مع التتار.

صديقي العزيز: أنت تعرف هذا وغيره، لاسيما وأنك فلسطيني وتعلم معاناة أهلك في مخيماتهم، وتعلم أيضاً ما يتعرض له الفلسطينيون في العراق على أيدي هؤلاء الباطنيين.

أنتم -معشر الإعلاميين والسياسيين والمفكرين العرب- تعرفون هذا وذاك، وتتحدثون في مجالسكم الخاصة عن شيء منها، لكنكم تُخطئون بل وتُكابرون في تفسيرها، ثم تتناسَونها مع مرور الزمن، لأن قاموسكم الذي تستخدمونه ليس فيه

مصطلح الباطنية، وتعدون مثل هذا التفكير ضيق أفق وتخلف، ولهذا تقعون في مثل هذه التناقضات.

صديقي هذا، تَفهَّم -بعض الشيء- ما سمعه مني في أكثر من لقاء، وصار يردِّد أمام بعض الأصدقاء المشتركين إذا صُدِم من فِعل فَعلوه: حقاً إنَّهم باطنيون، ثم يضيف: كما يقول فلان (يعنيني).

ولكن: إذا كان صديقي قد تفهَّم ما يسمعه مني، ولو على سبيل المجاملة، فمتى يفهم المحامون والإعلاميون، والنقابيون، وقادة الأحزاب العربية الذين يتوافدون على دمشق وبيروت؟

ففي دمشق يعقدون المؤتمرات لنصرة سورية -كما يزعمون- ضد التهديدات والمخططات الأمريكية-الصهيونية، ثم يتصدر رئيس النظام الباطني منصة الخطابة، ويطلق العبارات الجارحة التي تعبر عن حمقه غير المسبوق.

وفي بيروت يحتفلون بانتصار المقاومة على العدو الصهيوني، والمقاومة في مفهومهم تعني حزب الشيعة المسمى بحزب الله، وزعيمه (رجل إيران الفارسية) حسن نصر الله، الذي يضفون عليه ألقاب التعظيم والبطولة والفداء، أما الشعب اللبناني بأحزابه وعلمائه ودعاته، أما الفلسطينيون ومقاومتهم الباسلة، فهؤلاء ليسوا أكثر من أصفار عند هؤلاء المغفلين من أبناء جلدتنا.

وثالثة الأثافي أن أكثر هؤلاء المعجبين أو المدافعين عن الباطنيين في كل من دمشق وبيروت **هم من الإسلاميين، بل من الإخوان المسلمين.**

فمتى ثم متى يفهم هؤلاء الحقائق التالية:

- وقف النظام الصهيوني ضد كل من يطالب بسقوط نظام الباطنيين بدمشق، وقد جاءت هذه التصريحات على لسان شارون وغيره من زعماء إسرائيل، وحجتهم في ذلك أنهم يفضلون التعاون مع نظام ضعيف، يعرفون دقائق أموره، ويخشون من البديل، وكذا أمريكا وفرنسا وبريطانيا، لم يطالبوا بسقوط هذا النظام، وإنما طالبوه

بالعودة إلى بيت الطاعة، وحرمانه من الدور الإقليمي الذي منحه إياه، فلو لم يكن النصيريون في الحكم لجاء بهم الأمريكان إليه، فمنذ انقلاب حافظ الأسد عام ١٩٧٠م والعلاقات السورية الأمريكية في أحسن أحوالها.

- ينص القانون السوري رقم (٤٩) على إعدام كل من ينتسب **للإخوان المسلمين**، وقد طبقوا هذا القانون سابقاً ولاحقاً، وكل الإسلاميين في نظرهم من **الإخوان المسلمين**، ليتني أدري كيف يتعامل الإخوان المسلمون في بعض البلاد العربية مع هذا النظام، وهم لا يجهلون هذا القانون ولا غيره؟

- لنفترض أن الأمريكان وحلفاءهم يريدون اجتياح سورية، والله لن يقف في وجههم إلا المسلمون السُّنة، وسينحاز النصيريون بشكل أو بآخر إلى صف الغزاة المحتلين، أي كما فعل إخوانهم في العراق.

يا إخواننا... يا أبناء جلدتنا: إنكم تسوقون موقفكم المتخاذل بقولكم: إن المستهدف اليوم سوريا، وليس النظام ونحن مع سورية؟ لكن الحقائق الدامغة تؤكد أن سورية في العصر الحاضر لم تُسْتهدف بشيء، كما استُهْدِفتْ بأسد وحكمه وطائفته، فكيف تفهمون الأمر «بالمقلوب»؟

ولأبناء الحريري نقول:

لقد أغناكم الله بعد فقر مرير، وجعلكم سادة لبنان بعد أن كنتم نكرات لا يطمح أحد من عائلتكم المتواضعة أن يكون وكيل وزارة، بله أن يكون رئيس وزراء لبنان، ورجلاً مرموقاً في العالم، فلا تركنوا إلى أنفسكم وأموالكم وتتناسوا حق الله عليكم.

سبقكم والدكم في هذا الطريق، وهو كأي إنسان -خاض تجربة- له وعليه، وقد تحدثت في كتابي هذا عن أهم أعماله الطيبة التي استفاد منها الناس جميعاً، كما تحدثت عن بعض أخطائه، فاقتفوا أثره فيما قدم من أعمال جليلة، واحذروا أن تقعوا فيما وقع فيه من أخطاء.

ولن ينسى الناس في لبنان لأبيكم تدريس أكثر من ثلاثين ألف طالب على

حسابه الخاص تخرجوا من أشهر الجامعات الأجنبية، ومئات منهم حصلوا على شهادة الدكتوراه، ولن ينسوا أيضاً زكاة أمواله التي يوزعها سنوياً على الفقراء، وهذا مما ينبغي أن تفخروا به، وتكونوا خير خلف لخير سلف في عمل الخير.

ولكن ليكن معلوماً لديكم أن إيران تقدم لطائفة الشيعة عامة، ولما يسمى بحزب الله خاصة أكثر من ميزانية دولة، وتقدم كل من إيطاليا وفرنسا وكثير من الدول الغربية لمؤسسات النصارى المساعدات الوفيرة، أما أهل السُّنة فليس هناك من يتبنى مؤسساتهم التعليمية والخيرية، ولا يخفى عليكم ما آلت إليه أحوال جمعية المقاصد الإسلامية بعد تغريب الزعيم صائب إسلام، ثم موته... فهل يسد أبناء الحريري هذه الثغرة ويضاعفوا من المساعدات التي تقدم لأهل السُّنة؟

ما يسمى بحزب الله هو الذي يتولى قيادة الطائفة الشيعية، وهو حزب عقائدي شعوبي، ومصالح الطائفة الشيعية وإيران بالذات مقدمة على مصالح لبنان والعرب.

وفي كل مسألة تتوحد كلمة علمائهم وزعمائهم رغم ما بينهم من خلافات في الرأي الذي يقرره الحزب.

والمطارنة هم المرجعية التاريخية والروحية للنصارى، وهذه الروحية تتحول في معظم الحالات إلى سياسية.

أما أهل السُّنة فقيادتهم منذ استقلال لبنان علمانية، وعندما جاء رفيق الحريري إلى الحكم ارتكب بحقهم خطأين فادحين؛ أما الخطأ الأول: فيتمثل في القائمة التي كان يختارها كنواب ووزراء ومستشارين، فليس بينهم من كان يتبنى الإسلام عقيدة وسلوكاً وشريعة ونظام حياة.

أما الخطأ الثاني فقد نالهم في عهد حكوماته أسوأ أنواع الظلم والاضطهاد، ولم يحاول رفع الظلم عنهم في أي موقف من المواقف، فكان وكأنه لا ينتسب إليهم.

يا أبناء الحريري... ويا سعد الحريري... ويا تيار الحريري...: إياكم ثم إياكم أن تخطئوا في قراءة الأحداث، وفي فهمها..ها قد مضى عام على الحكومة

والمجلس النيابي وأنتم تمثلون الأكثرية في كل منها، ومع ذلك فما يزال أهل السُّنة يتعرضون للتهميش والظلم وكأن جيش الغزاة الباطنيين لم يخرج من لبنان، وإليكم الدليل: (**استقبل المفتي الشيخ رشيد قباني أهالي الموقوفين في أحداث الخامس من شهر شباط عام ٢٠٠٦م وأهالي موقوفي الطريق الجديدة في حضور مفتي جبل لبنان الشيخ محمد علي الجوزو، ورئيس هيئة رعاية السجناء وأسرهم في دار الإفتاء القاضي الشيخ محمد عساف، ومحامي الدفاع عن الموقوفين وحشد من العلماء.**

وبعد أن شرح أهالي الموقوفين معاناة أولادهم من التعذيب والإهانات والإساءة إلى الكرامة البشرية والإنسانية، مما يتناقض مع حقوق الإنسان والقوانين الدولية، أدلى المفتي بالبيان التالي:

(لقد اطلعنا على أساليب التعذيب الإرهابية التي لم نسمع بمثلها في سجن «أبو غريب» على أيدي الأمريكيين المحتلين في العراق، الكهرباء، الضرب، التصرفات الداعرة اللاأخلاقية كلها تمارس مع الموقوفين في لبنان، أنا أطلب طلباً واحداً من جميع المسؤولين -وممن ذكر من بين هؤلاء رئيس الحكومة فؤاد السنيورة ووزير الداخلية أحمد فتفت- أن يأتوا لدار الإفتاء ليتكلموا مع مفتي الجمهورية حتى نرفع الظلم إذ لا زالت بقايا الجهاز الأمني السابق في لبنان تعيث فساداً في أكثر الإدارات، وأضاف: لن نقبل بعد اليوم باستمرار فتح ملفات الموقوفين لأهل السُّنة في لبنان، ولن نقبل باستمرار التأجيل والمماطلة فيها) وختم بيانه بقوله: (**فإن لم يتحقق ما نطالب به، فسوف أدعوا أهالي الموقوفين إلى اعتصام مستمر في دار الفتوى ليلاً ونهاراً، وفي مرحلة ثانية إن لم يتحقق شيء من ذلك فسوف أدعوا جميع المسلمين للاعتصام في «دار الفتوى»**).

هذا البيان بل هذه الصرخة المدوية تأتي من مرجعية أهل السُّنة، من علماء كبار أخلصوا لأبيكم غاية الإخلاص وتجاوزوا عن أخطائه نحو بني دينه، وأخلصوا لكم من بعد أبيكم، وحملوا أهل السُّنة على انتخاب قائمتكم في يوم فاصل، وتعرضوا لحملة ظالمة من خصومكم داخل الطائفة السنية.

فمن لكم بعد هؤلاء العلماء الذين يمثلون نبض الشارع السني! وهل تعيدون تقويم تجربتكم في الحكم، وأنتم لا تزالون في بداية الطريق؟

يا سعد: اعلم وأنت لا تزال في شبابك وحداثة تجربتك أن الشارع السني لن يساق كما كان يساق بالأمس، فقد شب عن الطوق ولن يرحمكم يوم الانتخابات القادمة ما لم تستجيبوا لنبضه وترفعوا سيف الظلم عن كاهله، ومرة أخرى أقول: لا تخطئ يا سعد، في قراءة الأحداث ولا يخدعنك المستشارون العلمانييون الذين يحيطون بك، ولن ينفعك وليد جنبلاط، ولا سمير جعجع وأمثالهما.

يا سعد: إن فضائية المستقبل تقدم لمشاهديها دليلاً فاضحاً على فساد مؤسساتكم، فلماذا الإصرار على ذلك؟

وللمسلمين السُّنة نقول:

منذ أمد طويل ونحن ندعوكم إلى توحيد صفوفكم وإصلاح ذات البين بينكم، ولكننا اليوم لا نرى شيئاً مهماً قد تغير، فلا تزال الفوضى هي الفوضى، والخلافات تتوسع وتترسخ، وبعض المنظرين فيكم، يجيدون فن الهروب إلى الأمام، ويتمسكون بقول القائل (عنزة ولو طارت) ويرون ما صنعه الباطنيون في لبنان -إن اعترفوا به- ليس أكثر من أخطاء، ومن ثم فهم لا يدخرون وسعاً في التزلف لهم، وفي الثناء عليهم.

يا حكماء أهل السُّنة: كان الشيعة في لبنان متفرقين متخلفين، وفضلاً عن ذلك فهم موزعون بين اليمين واليسار ثم جاء إمامهم موسى الصدر مرسلاً من قِبَل شاه إيران محمد رضا بهلوي، ومزوداً بجميع أنواع الدعم، فاستطاع -خلال بضع سنين- نقلهم نقلة ما كانوا يحلمون بها..، وها هم بالتعاون مع حلفائهم في دمشق يحكمون لبنان منذ عقود ثلاثة، ولم يتضاءل دورهم بعد خروج القوات السورية من لبنان.

وأنتم يا حكماء أهل السنة لا يعجزكم أن تحققوا لإخوانكم ما حققه الشيعة

لأبناء طائفتم إذا أخلصتم نواياكم، وأخذتم بأسباب التغيير.

إن شباب أهل السنة يرون أن هناك خطراً يهددهم ويبحثون عن مرجعية يستفيؤون في ظلها، وتجيبهم عن أسئلتهم التي جعلتهم حيارى، وأوقعتهم في أخطاء فادحة، فمن لهؤلاء الشباب غيركم، أيها العلماء والدعاة؟

اللهم بصر عبادك الموحدين بمخططات وكيد أعداء هذه الأمة، واجمع اللهم شتاتهم، ووحد صفهم، وردهم إلى سواء السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد سرور

٢٢ جمادى الآخرة ١٤٢٧هـ

١٨ تموز ٢٠٠٦م

الفصل الأول

معاناة على أهل السنة

* اغتيال الشيخ حسن خالد.
* فتنة الأحباش.
* أحداث الضنية.
* مذابح جماعية.
* تجفيف المنابع.
* أجهزة الحكم.

عشية الانفجار المروع الذي أودى بحياة رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري، ومن كان في موكبه أو قريباً منه، دعا مفتي الجمهورية الشيخ محمد رشيد القباني إلى اجتماع موسع للمسؤولين في الطائفة السنية، حضره مفتو المناطق، ورئيس وقضاة المحاكم الشرعية السنية العليا، وعدد كبير من العلماء والوزراء ورؤساء الوزارات السابقين.

وبعد تدارس المجتمعين للحدث الأليم، وما يتصل به من قريب أو بعيد، أصدر المجتمعون البيان التالي:

(إن المسلمين السُّنة في لبنان الذين راعهم وصدمهم هذا الاغتيال الجائر والظالم لدولة الرئيس رفيق الحريري ومرافقيه وهو في قمة عطائه وبذله، ليشعرون أن قتل الرئيس الحريري يستهدفهم في وجودهم ودورهم وكرامتهم، وهم لم يكتفوا بالاستنكار لهذه الجريمة النكراء، ولن يسكتوا عن حقهم ومطالبتهم بكشف الجناة المجرمين أياً كانوا ومعاقبتهم، وهم يعلنون أنهم قد نالهم من الضيم ما يكفي، ومن الصبر ما لم يعد يحتمل، وإنهم يضعون هذه القضية بكل خلفياتها وتداعياتها في يد الشعب اللبناني، وفي ضمير الأمة العربية والإسلامية، ويشددون على أن يتحمل الجميع مسؤولياتهم الكاملة على هذا الصعيد.

الرئيس رفيق الحريري الشهيد لم يكن بالنسبة للمسلمين السُّنة في لبنان رجل سياسة ورجل دولة فقط؛ ولكنهم وجدوا فيه نعم الأخ والصديق والإنسان الكبير الذي وقف إلى جانبهم في أحلك الظروف وأصعبها، وآسى جراحهم، وعلَّم شبابهم وشاباتهم في أرقى الجامعات، ودافع عن حقوقهم وكرامتهم، وفضله قد عمّ الوطن بكامله، فمسيرة إعادة البناء والإعمار التي رعاها في كل لبنان تشهد له، واستعادة لبنان مكانته ودوره الحضاري على المستوى العربي والدولي إنجاز من إنجازاته الكثيرة، وخسارتنا له لا تعوض لأنها خسارة للوطن وللأمة، وسيكون غيابه مدعاة حزن وألم لهم حاضراً ومستقبلاً).

لم يسبق -فيما أعلم- لدار الإفتاء، أو للمجلس الإسلامي السني الموسع إصدار مثل هذا البيان، فهو قد صدر في ظل احتلال قوات النظام الباطني الذي ابتلي به الشعب السوري، ومن بعده اللبناني وهذه القوات لا ترحم ولا تتسامح مع كل من يقف في وجهها، وبخاصة إذا كان هذا الذي يقف في وجهها هو أكبر مرجعية لأهل السُّنة في لبنان، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فقد كان البيان شديد اللهجة، قوي العبارة، غاية في الوضوح والصراحة، وكل من يقرأه لا بد وأن يفهم بأن المخاطب والمتهم هو أجهزة الأمن السورية وعملاؤها في لبنان.

ومن جهة ثالثة: فقد شارك في هذا الاجتماع بعض الأسماء المرتبطة بالنظام السوري، والمعارضة للرئيس المغدور رفيق الحريري، ومن بينهم رئيس الوزراء -في حينه- عمر كرامي، ووزير الدفاع عبد الرحيم مراد، ومع أن البيان مخالف لمواقفهم، فما كان بمقدورهم الاعتراض، أو الانسحاب على الأقل لأن الأجواء من حولهم ملتهبة والمشاعر متوثبة، وليس بوسعهم إلا أن يحنوا رؤوسهم أمام العاصفة، ولقد حاول رئيس الوزراء السابق عمر كرامي أن يرفع رأسه بعد الانتخابات التي تلت بيان المجلس الإسلامي، فشن هجوماً على المفتي الشيخ رشيد القباني زاعماً أنه تجاوز حدوده، وانحاز إلى فئة سياسية من السُّنة ضد فئة أخرى، لكن هجومه ارتد عليه والزمن تجاوزه، ولولا سمعة أبيه عبد الحميد وأخيه رشيد لما كان له أي دور سياسي.

وفي تشييع جنازة الحريري تقاطر العلماء من مختلف مناطق ومدن لبنان، وساروا مجتمعين وراء الجنازة يتقدمهم المفتي العام، وكان منظر عمائمهم ووقارهم مادة إعلامية عند مختلف وسائل الإعلام، تقدم أحد المراسلين من الشيخ القباني وطلب منه تعليقاً على هذا الحدث، فأجاب والانفعال باد على محياه: إن المستهدفين هم أهل السُّنة، ولن نسكت بعد الآن... ثم كرر العبارات التي وردت في البيان الآنف الذكر.

ليس معروفاً عن الشيخ رشيد القباني، شدة الاندفاع ولا المجازفة، فما الذي دفعه وإخوانه علماء لبنان إلى الوقوف بمثل هذه القوة ضد النظام السوري الذي كان يحتل بلده، وضد عملاء هذا النظام وأعوانه من أمثال: رئيس الجمهورية وأجهزة الأمن اللبنانية وضد كل من حزب الله وحركة أمل؟!

في بيان المجلس الإسلامي السني الموسع وردت الفقرة التالية:

(وهم -أهل السُّنة- قد نالهم من الضيم ما يكفي، ومن الصبر ما لم يعد يحتمل...).

إذاً فالمفتي وإخوانه من العلماء والقضاة لا يتحدثون عن جريمة اغتيال الحريري وحدها، وإن كانت هذه الجريمة قد هزتهم وآلمتهم، ووضعت حداً فاصلاً لصبرهم الذي طال أمده، وإنما يتحدثون عن تاريخ مرير من القهر والإذلال، والقَتْل الجماعي واغتيالات رموزهم، فضلاً عن التهميش وحرمانهم من أداء دورهم السياسي المُشرِّف الذي لم ينقطع إلا في عهد الاحتلال الباطني لبلدهم.

وفيما يلي سنعرض نماذج من هذه الأحداث المؤلمة التي عاشها المفتي وإخوانه العلماء، ويصعب جداً أن تنساها ذاكرة أحد منهم مهما كانت ضعيفة أو مثقوبة:

أولاً: اغتيال الشيخ حسن خالد

نبدأ بهذا الحدث مع أنه وقع في عام ١٩٨٩م وسبقه ثلاثة عشر عاماً حافلة بالأحداث الدامية، لأنه كان عدواناً صارخاً على دار الإفتاء، وعلى جميع علماء ودعاة لبنان، وعلى كل من ينتسب لأهل السُّنة والجماعة.

الشيخ حسن خالد كان يطالب بقوات ردع عربية، ومن بينها قوات سورية، وهذا عندهم ذنب لا يغتفر، أما ذنبه الآخر؛ فقد رفض أن يكون عميلاً لهم كغيره من كبار القوم -إلا ما شذ وندر- أجل، رفض الشيخ أن يكون عميلاً لهم، لكن صلته بهم لم تنقطع، وكان يتعامل معهم بما عُرِفَ عنه من تسامح وتواضع ودماثة أخلاق.

كان الشيخ رشيد القباني وغيره من العلماء العاملين في دار الإفتاء يستمعون إلى شيخهم حسن خالد، وهو يحدثهم عن التهديدات التي تصله بين الحين والآخر، وكانوا يسمعون دوي القنابل التي تنهال على دار الإفتاء على مقربة من مكاتبهم، وكانوا مع شيخهم رحمه الله عندما استدعى سامي الخطيب قائد قوات الردع العربية، وأطلعه على القنابل التي لم تنفجر، وما كُتِب عليها من عبارات تثبت بأنها سورية، ثم انتهى هذا المشهد بتفجير سيارة شيخهم بطريقة مشابهة لحادث اغتيال رفيق الحريري.

الشيخ رشيد القباني وإخوانه العلماء العاملين في دار الإفتاء الذين كانوا لا يأمنون على أنفسهم طوال عهد الاحتلال، كانوا يتساءلون:

لماذا نحن دون غيرنا من الطوائف الأخرى؟

البطريرك صفير كان يطالب بخروج القوات السورية من لبنان، كما كان المدافع الأمين عن حقوق نصارى لبنان، ويستنكر ما يتعرضون له من اعتداءات، وكان السوريون يقابلون شدته بليونة مصطنعة، فيدعونه إلى زيارة دمشق والالتقاء بحافظ الأسد، وكان يرد بالرفض، ويعدهم بالاستجابة لدعوتهم بعد خروج قواتهم من لبنان.

البطريرك صفير كان يعلم أنه يأوي إلى ركن شديد، فهناك خطوط حمراء رسمها الذين أذنوا لسورية بدخول لبنان، وكان بطريرك الموارنة أحد هذه الخطوط التي لا يجوز المساس بها.

أما مراجع الشيعة فقد كانوا شركاء للغزاة النصيريين في حكم لبنان، هكذا كان موسى الصدر قبل اختفائه، وشمس الدين وحسين فضل الله وقبلان وحسن نصر الله ونبيه بري - كمسؤول سياسي-، كانوا يصولون ويجولون في كل من سورية ولبنان، وكانوا ينشرون التشيع بين أهل السُّنة دون حسيب أو رقيب، وكان لبعضهم مراكز في (الست زينب) قرب دمشق يتوافد عليها أنصارهم من كل مكان.

في هذا الجو المشحون صنعت بطولة حسن نصر الله على أشلاء المجاهدين أهل السُّنة من الفلسطينيين واللبنانيين، وهو الذي كان بالأمس عضواً في المكتب السياسي لحركة أمل صاحبة مجازر مخيمي صبرا وشاتيلا.

ومما لا ينقضي منه العجب ولا الاستغراب أن لشيعة لبنان وحدهم مسؤول خاص، هو ضابط المخابرات المعروف محمد ناصيف الذي يرتبط مباشرة بالرئيس حافظ الأسد، وهذا الضابط نصيري، وكان له شأن كبير داخل الحكومة النصيرية الخفية، وكان غير مسموح للمسؤول عن ملف لبنان نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام التدخل في شأن الشيعة، والتعامل معهم بالطريقة المهينة التي كان يتعامل بها مع السُّنة أو النصارى.

وكذلك كان المحتلون السوريون يعاملون شيخ عقل الدروز ومساعديه بكل تقدير واحترام، ولم يتعرضوا لهم بأية مساءلة أو إهانة بسبب تعاونهم مع الإسرائيليين خلال اجتياحهم للبنان عام ١٩٨٢م.

كان المفتي العام -السابق واللاحق- وإخوانه العلماء يرون تمييزهم دون غيرهم من الطوائف الأخرى بسوء المعاملة، وحتى من كان منهم بعيداً عن التدخل في شؤون المحتلين لم يسلم من الاغتيال، والشيخ الدكتور صبحي الصالح -رحمه الله- أحد الأمثلة على ذلك.

ثانياً: فتنة الأحباش

فرقة ظهرت في لبنان في مرحلة الستينيات من القرن الماضي، وأطلق عليهم اللبنانيون هذه التسمية نسبة إلى شيخهم عبد الله الهرري الحبشي، ومما أذكره أن هذا الشيخ نزل دمشق الشام في مرحلة الخمسينيات من القرن الماضي، زاعماً أنه فر من الحبشة بعد أن بات فيها لا يأمن على نفسه بسبب اضطهاد الصليبيين الحاكمين - أيام حكم الإمبراطور هيلا سيلاسي- له وتربصهم به، هل كان صادقاً فيما ادعاه أم أنه جاء لغرض آخر؟

لا أدري، لكن علماء دمشق نفروا منه بعد تعرفهم عليه واستماعهم إلى أفكاره التي يدعو إليها بشيء من الحذر، وبعد حينٍ من الزمن وجد نفسه معزولاً منبوذاً، فالكل يحذّر منه ويبتعد عنه، فما كان منه إلا الفرار من هذه العزلة واختيار بيروت مكان إقامته.

وجد الهرري قبولاً في أوساط بعض شباب لبنان الذين لم يحصنوا أنفسهم بالحد الأدنى من العلوم الشرعية، ولكن هذا القبول بقي محدوداً لولا تبني قوات الأمن السوري لهم، وتقديم مختلف أنواع الدعم والمساعدة لهم.

ففي ظل الاحتلال السوري الباطني للبنان سيطروا على مساجد كثيرة بالقوة، كما خططوا للسيطرة على دار الإفتاء، ورشحوا شيخهم نزار الحلبي ليكون مفتي لبنان، وكان هو الأزهري الوحيد بينهم.

كانت هذه الجماعة تقول بكفر كثير من علماء الأمة ودعاتها وجماعاتها في لبنان، وفي العالمين العربي والإسلامي، كما كانت تكفر عدداً من قدامى علماء الإسلام الذين هم موضع اعتزاز وتقدير الأمة الإسلامية، وكانت لا تخفي تعاونها مع أجهزة أمن سورية ولبنان، وتقديم التقارير لها بغض النظر عن عقيدة ودين رجل الأمن الذي يتعاملون معه، أما أعداؤهم في لبنان فهم:

■ دار الإفتاء ممثلة بالمفتي العام ومساعديه وسائر علماء أهل السُّنة والجماعة، وهي تطالب اليوم بالمساجد التي اغتصبوها بالقوة.

■ جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي رفعت دعاوى ضدهم أمام القضاء.

■ تيار المستقبل الذي يقوده سعد بن رفيق الحريري، ومن المتهمين باغتيال أبيه أحمد ومحمود عبد العال وهما من قادة هذه الفرقة.

■ جمعية الفتوة الإسلامية أو الرجبيون نسبة إلى الشيخ رجب ديب، تلميذ مفتي سورية السابق أحمد كفتارو، وهي جماعة صوفية.

■ الجماعة الإسلامية، أي الإخوان المسلمون، فرع لبنان.

■ كافة المجموعات السلفية، وهذا الذي ذكرته على سبيل الإجمال، أما من أراد الحصر؛ فهم يعادون كافة دعاة وجماعات علماء أهل السُّنة من غير استثناء.

وفي المقابل نذكر فيما يلي حلفاء وأعوان هذه الجماعة:

■ أجهزة الأمن السورية واللبنانية.

■ حلفاء سورية في لبنان: كحزب البعث والحزب القومي السوري وغيرهما من الأحزاب العلمانية.

■ حركة أمل. وهي التي سهلت لهم دخول بيروت الغربية عندما كانت تسيطرة عليها في أواسط الثمانينيات من القرن الماضي.

■ يتعاونون مع الشيعة بشكل عام، بل في صفوفهم كثير منهم، ويحتلون مراكز مهمة في قيادة هذه الجماعة.

■ انضم إليهم كثير من «زعران بيروت» الذين كان يستخدمهم جهاز أمن منظمة التحرير الفلسطينية مقابل رواتب شهرية، فأصبحوا عملاء لجهاز الأمن السوري.

ضج أهل السُّنة جميعاً من هذه الجماعة التي لا يزكيها أي عالم من علماء الأمة

يعتد بعلمه وفضله لا في لبنان ولا في غيره، وتساءلوا: نحن نفهم أن يقوم النظام السوري بانقلاب عسكري، فهو يجيد هذه الصنعة، أما أن يقوم بانقلاب ديني ينسف عقائد طائفة لا ينتمي إليها، وينحي علماءها ليضع بدلاً منهم عملاء له لم يكونوا في يوم من الأيام أهل علم ودعوة، فهذا أمر لا يجوز السكوت عنه مهما بلغت التضحيات؟

لم يستطع بعض الشباب قبول هذا التحدي الذي يتفاقم شره يوماً بعد آخر، فقاموا باغتيال زعيم هذه الفرقة المدعو نزار حلبي، الذي كان مرشحاً من قبل الغزاة ليكون مفتي لبنان، وكان اغتياله صفعة قوية للذين صنعوه، ففقدوا صوابهم، وانطلقوا كحمر مستنفرة يعتقلون أعداداً كثيرة من الشباب الذين لا علاقة لهم بحادث الاغتيال، وفضلاً عن الاعتقالات فقد أغلقوا معاهد ومؤسسات خيرية بشكل عشوائي.

بعد الاعتقالات، تشكلت المحكمة بسرعة فائقة، وبعد التعذيب الذي لا يحتمل أُمْلِيت الاعترافات التي يريدها المحققون وخلاصتها: المتهمون عملاء للسودان الأصولية، وقد تدربوا على الاغتيالات في الخرطوم، واغتيال الحلبي بداية لتنفيذ مخطط واسع لهم في لبنان، وبالسرعة نفسها التي تشكلت فيها المحكمة صدرت الأحكام التي تتراوح بين الإعدام، والسجن المؤبد أو القريب منه، ولم تتوان السلطة في تنفيذ الإعدامات دون أي إمهال.

وعاد السؤال مرة أخرى:

لماذا لا يُحاكم ويُعدَم بمثل هذه السرعة عملاء إسرائيل أو زعماء عصابات الموارنة والشيعة والدروز من أمثال: إيلي حبيقة، ووليد جنبلاط، ونبيه بري، وسمير جعجع، الذين أبادوا مخيمات وأحياء بأكملها؟

وهل يستطيع المحتلون الغزاة صنع فرقة حبشية مسيحية في أوساط النصارى، أو تهيئة وإعداد نزار حلبي مسيحي ليكون بديلاً للبطريرك صفير؟

وجوابنا:

لا، لن يستطيعوا، لا في أوساط النصارى ولا الدروز أو الشيعة، ولو استطاعوا فلن يفعلوا.

نفذ مخزون الصبر عند السُّنة في بيروت، ثم في جميع المناطق، فخرجوا عام ١٩٩٦م- أي بعد مقتل الحلبي بقليل- في مظاهرة نادرة المثال، وكان يقودها كبار العلماء والدعاة، وقادة الجماعات الإسلامية، وشارك فيها من لم يسبق له أن خرج في مظاهرة، كان المتظاهرون ينددون بالظلم والظالمين، ويستنكرون الأحكام الجائرة، ويترحمون على من تم إعدامهم، كما كانوا يهتفون ضد جماعة المشاريع الخيرية - الأحباش-، ويطالبون بالإفراج عن المعتقلين.

المفتي العام الشيخ رشيد القباني كان له موقف شجاع، فقد قام بزيارة أسر المعتقلين، وهدد بفضح ادعاءات النائب العام عدنان عضوم، مما أجبره على إطلاق سراح كثير منهم، وإقفال ملفاتهم.

وخلاصة القول:

لم تكن المشكلة بين فرقة الأحباش والمجموعات السلفية، كما زعمت أجهزة الأمن، وإنما كانت بين الأحباش وأهل السُّنة جميعاً.

ثالثاً: أحداث الضنية

كتبت عنها في حينها، إلا أني-ومنذ وقت قريب- اطلعت على مقال نشرته مجلة الشراع اللبنانية، فاستحسنت نقله فيما يلي، لما فيه من تغطية إضافية، ولقربها -أي المجلة- من الحدث، وقوة صلاتها مع المسؤولين والمعارضين:

(قال أحد الهاربين الطرابلسيين من معتقلات المخابرات السورية في خريف وشتاء ١٩٩٩م: ألقت المخابرات المشتركة اللبنانية السورية قنابل ومتفجرات أمام الكنائس المسيحية في طرابلس، ثم قامت بعدها بحملة اعتقالات واسعة طالت عشرات الشباب في المدينة، ممن أخضع لتعذيب مهول[١].

وقد ذهب بعض الذين أطلق سراحهم إلى جبال منطقة الضنية، حيث اندس بينهم عدد من العاملين مع المخابرات -قيل أن واحداً على الأقل كان من جماعة الأحباش المعادية بشدة للسلفية الوهابية- وعشية رأس السَّنة أول يوم من عام ٢٠٠٠م -وكان ذلك أثناء شهر رمضان- حصل اشتباك بين مجموعة من هؤلاء الشباب كانت في مبنى إذاعة تابعة لحركة سلفية طرابلسية لا يعرف عنها سوى الدعوة السلمية، ودورية للجيش ظهرت فجأة في المنطقة!! جرى بعدها أخذ الضابط النقيب قائد الدورية رهينة من قبل المجموعة، وذلك بهدف الخروج من المنطقة.

يومها فاوض الضابط المجموعة التي تحتجزه وأقنعها بالاستسلام ووعدها بالأمان والعفو، نظراً لمعرفته بأنها لم تكن تنوي الاشتباك أو القتال مع الجيش، وحين اتصل جاءه الرد من اللواء جميل السيد، والعميد ريمون عازار، ومن الرئيس إميل لحود شخصياً أوامر بالقصف المدفعي العنيف الذي طال عشرات القرى والمزارع والحقول في المنطقة، استُشهد بنتيجته عدد من المواطنين ممن كانوا في الحقول أو في منازلهم.. ثم تركز القصف على المنزل الذي كان فيه الضابط

(١) أكدت بيانات الجماعات الإسلامية المعنية في مدينة طرابلس هذه المعلومات.

ومحتجزيه فقتل هو ومن معه، ومن بقي حياً مصاباً جرى الإجهاز عليه بأمر القيادة التي كانت لا تريد أي شاهد، وقد عملت المخابرات لاحقاً على تجييش أهالي الضابط والجنود القتلى بحجة أن شباب الضنية ذبحوا الضابط الشهيد.

هذا وتملك الجماعات الإسلامية في لندن شريط فيديو مصوراً عما حدث حقيقة، إضافة إلى أقوال المتهمين المعتقلين لدى المخابرات إلى اليوم، وهي موثقة لدى منظمة العفو الدولية، ولدى منظمات حقوق الإنسان في لبنان، إضافة إلى ما نقلته الصحف من وقائع المحاكمات التي جرت والتي كان عضوم بطلها).

وأضافت الشراع:

(... وقام وزير الداخلية إلياس المر باعتقال المئات من أهالي الضنية، وهو أعلن مراراً وتكراراً أنه -ضبَّ- قرى بكاملها) اهـ[1].

وأضيف إلى مقال (الشراع) أن بعضاً من الذين اعتقلوا كانوا عازمين على توجيه ضربات للسلطة التي كانت تضطهدهم وتطاردهم، وتعتقلهم لأتفه الأسباب، لكن عدد هؤلاء كان قليلاً جداً، وكانت أجهزة الأمن تتابعهم، وتعرف مقاصدهم، وهي التي زرعت بين صفوفهم عيوناً لها، **هذه واحدة.**

أما **الثانية:** فقد اتخذت أجهزة الأمن من هذه الأحداث التي صنعتها ذريعة لاعتقال عدد كبير من العلماء والدعاة الأبرياء الذين كانوا يحذِّرون الشباب من عواقب الطيش والتسرع.

أما **الثالثة:** فقول وزير الداخلية: (أنه -ضبَّ- قرى بكاملها).

تفوح من هذه الكلمة روح الكراهية والحقد والاحتقار، لأن كلمة (ضبّ) تستخدم في جمع الحيوانات الضالة، أو ما هو أقل من الحيوانات -كما في اللغة الدارجة-، وكان بين الذين (ضبهم) وزير الداخلية وأجهزته أطفال دون سن البلوغ، ولم تكن لهم أدنى علاقة بالأحداث.

(١) الأقواس لكاتب مقال الشراع.

أما **الرابعة**: فنعود إلى السؤال إياه: لماذا أهل السُّنة دون غيرهم؟

فصبحي الطفيلي أمين عام حزب الله السابق قاد ثورة مسلحة في البقاع سماها «ثورة الجياع» اشتبك هو وثواره مع كل من قوات الأمن وقوات الجيش، وأدت هذه المعارك إلى وقوع قتلى وجرحى من الطرفين... ثم ما الذي حدث بعد ذلك؟!

توارى عن الأنظار قليلاً تحت سمع وبصر أمن ومخابرات السوريين واللبنانيين، ثم تركوه ومن معه، فلم يعدم أحد منهم، كما أعدم المتهمون بقتل شيخ الأحباش نزار الحلبي، ولم يحكم عليهم بسنوات سجن طويلة، كما حكم على شباب الضنية، ناهيك عن التعذيب والاضطهاد.

وشتان شتان ما بين الطفيلي وشباب الضنية، فالأول زعيم شيعي كان يقود حزب الله في مرحلة مهمة من تاريخ الحزب، وله شعبية لا يستهان بها وبالأخص في بعلبك والبقاع، أما شباب الضنية فليس بينهم مرجع أو رمز من رموز أهل السُّنة، وكثير منهم كانوا دون سن البلوغ.

ورغم رفض الشارع السني للظلم الذي لحق بالشباب في كل من الضنية وطرابلس، ومطالبته بالإفراج عنهم، ورغم تأييد بعض نواب النصارى في الشمال للشارع السني، فإن السلطة كانت مصرة على طغيانها، ولم يتم الأفراج عن كثير منهم إلا بموجب قرار من المجلس النيابي الجديد الذي جاء وفق انتخابات حرة بعد رحيل الغزاة، وسقوط النظام الأمني.

رابعاً: مذابح جماعية

منذ أن وطأت أقدام الغزاة الباطنيين أرض لبنان، وحتى اغتيال رفيق الحريري، والمسلمون السُّنة يتعرضون لأشد أنواع الاضطهاد والتهميش والإبادة على أيدي المحتلين وحلفائهم في لبنان.

ففي الشمال اجتاحت قواتهم المخيمات الفلسطينية قرب طرابلس مثل مخيم البداوي، ومخيم نهر البارد، واشتبكت مع قوات لحركة فتح في البقاع، مما أدى إلى وقوع خسائر فادحة في أرواح المدنيين الفلسطينيين، ثم تكرر الاجتياح بعد عودة ياسر عرفات، وامتدت هذه المعارك لتشمل طرابلس التي دخلتها القوات السورية بعد معارك طاحنة وغير متكافئة، ففي حي واحد من أحياء المدينة قُتل أكثر من سبعمائة -كما يروي أهل طرابلس-.

وقاتل إلى جانب القوات السورية الباطنية كل من مليشيا: الحزب القومي السوري الاجتماعي، وحزب البعث اللبناني، وقوات الجبهة الشعبية -القيادة العامة- التي يرأسها أحمد جبريل، وقوات الطائفة النصيرية الذين استوطنوا المدينة منذ عقود.

وفي بيروت تعرضت المخيمات لمذابح، وبعضها لإبادة كاملة: فمن مخيم الكرنتينا على يد الموارنة، إلى تل الزعتر على يد الموارنة أيضاً، وكانت القوات السورية تحرس القتلة، وتحول بين قوات منظمة التحرير وبين المشاركة في القتال لتخفيض الضغط على المخيم.

أما مخيما صبرا وشاتيلا فتعرضا لمذبحتين كبيرتين:

الأولى: على أيدي القوات اللبنانية بعد مقتل الرئيس المنتخب بشير الجميل، وكان يقود هذه القوات المجرم المحترف إيلي حبيقة، وكان لا يزال المنسق بين الموارنة والإسرائيليين، وثبت من خلال التحقيقات أن قوات شارون الإسرائيلية هي التي أذنت للقوات اللبنانية بارتكاب هذه المجزرة الفظيعة.

الثانية: على يد القوات الشيعية -حركة أمل-، وبعض قادة حزب الله اليوم كانوا أعضاء قياديين في حركة أمل، أما القوات السورية فقد زودت حركة أمل بأسلحة فعَّالة، كان من بينها أكثر من أربعين دبابة، وأثناء اجتياح قوات أمل للمخيمين كانت القوات السورية تحميها، وتمنع قوات منظمة التحرير من نجدة أطفال ونساء صبرا وشاتيلا، مثلها في ذلك كمثل حماية القوات الإسرائيلية لقوات الموارنة.

أما بيروت الغربية فقد كانت عرضة لاعتداءات ومذابح متعددة، كان من بينها اجتياح كل من قوات الشيعة -أمل- وقوات الدروز -الحزب التقدمي الاشتراكي- لها، واستباح المحتلون أموال وأرواح وأعراض سكان هذه المدينة السنية العريقة والمسالمة، ومن ثم فقد هيأوا الأسباب لعودة القوات السورية إلى بيروت الغربية، إثر معارك افتعلتها حركة أمل مع كل من الحزب الشيوعي، والحزب التقدمي الاشتراكي، فعادت لتكرر مقولتها في المرة الأولى إن هدفها إنهاء الحرب الأهلية وهي التي تشعل فتيلها.

فلا أدري، متى يفهم قومي أساليب الباطنيين ووسائلهم حتى لا ينخدعوا بهم؟!

عادوا في المرة الثانية ليعبثوا بالمدينة، ويذلوا أهلها، ولست أعتقد أن أحداً من أهل بيروت الغربية عاش تلك الأحداث سوف ينسى ما حل بمدينته من كوارث ومحن، فكيف ينسى اغتيال المفتي الشيخ حسن خالد -رحمه الله- بعد هذه العودة؟ والاعتقالات العشوائية التي طالت جميع أحياء المدينة.

خامساً: تجفيف المنابع

أنهى مؤتمر الطائف الحرب الأهلية، مع استمرار الهيمنة السورية كأمر واقع وفي أول حكومة بعد المؤتمر، اتخذت السلطة قراراً بنزع أسلحة المليشيات، وطُبق القرار على جميع المليشيات إلا الشيعة ممثلين بحزب الله بحجة أنهم مقاومة مشروعة، وصاروا مؤسسة عسكرية تشبه الجيش، ومن يشكك بشرعيتهم فهو خائن وعميل للصهيونية، **فهذه واحدة**.

أما **الثانية**: فقد أصدرت السلطة قراراً آخر بإغلاق الإذاعات والفضائيات، وكان أهل السُّنة أول من طُبِّق عليهم هذا القرار، وعندما رفض شباب من أهل السُّنة إغلاق فضائيتهم في طرابلس، وطالبوا معاملتهم كغيرهم من الطوائف الأخرى، قامت قوات الجيش بتدمير المبنى على رؤوس المعترضين فقُتِل مَن قُتِل، وجُرِح مَن جُرِح، أما فضائية المنار الشيعية فمثلها كمثل سلاح حزب الله لم يطبق عليها القرار، وأصبحت في نظر أصحاب القرار -السوري واللبناني- مثالاً يُحتذى به في مقاومة الإسرائيليين وعملاء الاستعمار، وفي توحيد الصف الوطني، وقد ضللت المنار النَّاس في الوطن العربي، وبالأخص في المغرب العربي، وأصبحت منبراً من منابر التشيع.

أما **الثالثة**: فالجمعيات الخيرية التي تعود ملكيتها لأهل السُّنة، فقد كانت تغلق لأتفه الأسباب، وإن أعياهم ذكر السبب قالوا: إنها إرهابية!!... وحتى جمعيات رفيق الحريري الخيرية -التي كان لها فضل على كثير من أهل لبنان على مختلف طوائفهم- لم تسلم من الإجراءات التعسفية والاتهامات، واعتقال بعض الموظفين أثناء توزيع الأطعمة والأموال، وأقرب مثال على ذلك: الاعتقالات التي طالت الذين كانوا يوزعون الزيت على الفقراء، قبل مقتل الحريري بأيام قليلة، فتدخل المفتي العام من أجل الإفراج عنهم.

إذاً، فرئيس الوزراء لعدد من الحكومات، وصاحب الثقل اللبناني والعربي والعالمي، لم يكن حراً في توزيع زكاة أمواله!

أما المدارس والمعاهد والكليات والمنتديات والمكتبات ودور النشر، فكانت قيد المراقبة الصارمة، وذات مرة فتشت قوات الأمن سيارة فوجدوا فيها كتباً تتحدث عن الفرق؛ ومنها الفرقة النصيرية في إطارها التاريخي والعقدي، وليس في إطارها السياسي المعاصر، فاعتُقِل ركاب السيارة، وأُغلِق معهدهم، وشُرِّد طلابه.

وبين تهمتي الإرهاب والوهابية كان أهل السُّنة موضع اتهام من قبل قوات الوصاية وتابعها في لبنان، وإذا كنا لا ننكر أن بعض النصارى نالهم نصيبهم من البطش والتنكيل، ولكن لا مجال لمقارنتهم بأهل السُّنة لأن بعضاً منهم كان شريكاً لنظام الوصايا وحليفاً للشيعة.

وفي المقابل كان كل شيء مسموحاً به للشيعة، فقد كانوا يفتحون ما يشاءون من مدارس ومعاهد وكليات دون حسيب أو رقيب... أما جمعياتهم ومؤسساتهم الخيرية وقواتهم العسكرية والأمنية، فكانت تمثل دولة داخل شبه دولة، وكانت دور نشرهم ومكتباتهم المنتشرة في كل مكان تمد العالم بالرسائل والكتب التي يشتمون ويكفرون فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، كما يشتمون غير الصحابة من التابعين وتابعيهم من علماء الأمة وقادة الفتوحات الإسلامية الذين أعز الله بهم دينه.

قبل حوالي عامين فقدت الجزء الثاني من كتاب مذاهب الإسلاميين لمؤلفه الدكتور عبد الرحمن بدوي، ولعل أحد الأصدقاء استعاره، ونسي أن يعيده إلي، وعندما أعياني البحث عمن استعار الكتاب رحت أبحث في المكتبات من أجل شراء الجزئين: الأول والثاني وبأي ثمن، فكان رد أصحاب المكتبات في عدد من البلدان العربية: الجزء الأول موجود، أما الثاني فمفقود، وأنا حاجتي للجزء الثاني لأن الكاتب خصصه للفرق الباطنية الرافضية مثل: النصيرية والإسماعيلية... إلخ، وتبين لي في نهاية البحث أن الذين يحكمون لبنان من قوات الوصايا وحلفائها

الشيعة منعوا دار العلم للملايين في بيروت من إعادة طبع[١] الجزء الثاني، مع أن الكاتب علماني لا شأن له بسنة أو شيعة، هذا مثال واحد على ما آل إليه وضع لبنان في عهدهم، كانوا يفعلون كل شيء، ويمنعون نشر أي بحث يتعرض لهم بالحق الذي يمقتونه.

(١) عثرت على الكتاب بعد بحث مضنٍ، فوجدت أن الناشر قد جمعه في مجلد واحد، وحذف منه الباب المتعلق بالدروز بناءً على طلب الهيئات الدينية المختصة.

سادساً: أجهزة الحكم

كان لبنان يُحكم من قبل الأجهزة التالية:

١- الجهاز السياسي:

رئيس الجمهورية إميل لحود الرجل الأول في هذا الجهاز، ويشاركه المسؤولية آل المر -ميشيل وابنه إلياس-، وأمين عام حزب الله حسن نصر الله، ورئيس حركة أمل نبيه بري، وسليمان فرنجية، وطلال أرسلان، ووليد جنبلاط، وإيلي حبيقة قبل هلاكه.

ويأتي في المرتبة الثانية: رؤساء الوزارة مثل: سليم الحص ورفيق الحريري وعمر كرامي.

٢- الجهاز الأمني:

مدير الأمن العام اللواء جميل السيد وهو من الطائفة الشيعية، وقائد قوى الأمن الداخلي اللواء علي الحاج، ولم يسبق للشيعة أو للسُّنة السيطرة على منصب المدير العام للأمن العام، فقد كان دائماً من نصيب الموارنة، ومدير المخابرات العسكرية العميد ريمون عازار، وكما يدل عليه اسمه فهو نصراني، وإذاً لم يكن بين قادة الجهاز الأمني مَنْ هو مِن أصول سنية، ولو كان هذا السني عميلاً لهم.

٣- الجهاز القضائي:

يقف على رأسه النائب العام عدنان عضوم -منسوب لأهل السُّنة-، ثم أسندت إليه حقيبة وزارة العدل، ولم يحدث من قبل الجمع بين وزارة العدل والنيابة العامة، فمن كان يتولى منصب النائب العام كان يسمى (حاكم لبنان القضائي) وكان حكراً على الموارنة وحدهم دون غيرهم.

وإذاً، فقد كان عدنان عضوم حاكم لبنان القضائي كما كان وزيراً للعدل في حكومات لا تحترم العدل، ولا تقيم وزناً للحرية، وهذا يعني أنه كان يتمتع بصلاحيات قريبة من صلاحيات الحاكم بأمره، ولكن ليس على جميع الطوائف، فهو بالنسبة لأهل السُّنة كان أشر عليهم من ألد أعدائهم، ففي قضيتي الضنية، ومقتل الحلبي، كان هو ومساعدوه يسيرون على نهج المحققين في أقبية المخابرات السورية، ومن الأسئلة التي كانوا يوجهونها للمتهمين:

هل تؤمن بوجوب تحكيم الشريعة الإسلامية؟ وما موقفك ممن يكفر الناس؟ وهل أنت وهابي أم من جماعة القاعدة؟ ولماذا تطيل لحيتك وتقصر ثوبك؟... وما إلى ذلك من أسئلة.

وكان عضوم يضلل التحقيق، ففي قضية اغتيال مروان حمادة، يقول المجني عليه: (إنه -عضوم- أخفى شريط فيديو يظهر فيه مرتكب العملية) وفي قضية اغتيال الحريري ابتدع هو وبقية أفراد العصابة في الأجهزة الأخرى أسطورة «أبو عدس»، وعندما تهاوت هذه الأسطورة اخترعوا أسطورة الحجاج الأستراليين القادمين من قرية المنية الشمالية التي كذبتها السلطات الأسترالية.

وإذا شئنا الاختصار، فأفراد العصابة الحاكمة من مختلف الأجهزة هم: إميل لحود، والمعتقلون الأربعة (السيد الحاج وعازار حمدان وعدنان عضوم، وسليمان فرنجية)، وكان هؤلاء يرتبطون بقائد نظام الوصاية في دمشق، ومندوبه السامي في لبنان، غير أن هذا الارتباط لا يمنعهم من الانفراد بأمور تخدم طموحاتهم السياسية ولا تضر نظام دمشق، ومن ذلك كيدهم الدائم، وعداوة لحود التي لا تنقطع لرفيق الحريري، فقد تتجاوز معارضة الحريري للحود الخط الأحمر، وهنا تتحرك قوات الأمن، فتطلق عدداً من الصواريخ على تلفاز المستقبل من جهة، ومن جهة أخرى يقومون باعتقال عشرات من الشباب الأصوليين -حسب زعمهم-، ويلصقون بهم هذه التهمة، وتحت التعذيب الوحشي يأخذون منهم اعترافات بالتهم الموجهة إليهم.

الحريري قبل غيره يعرف أن هذه الفرية من صنع لحود وعصابته، وأن هؤلاء

الشباب لا ذنب لهم، ولابد له من عدم تجاوز الخط الأحمر، بعد هذا الإنذار فيفعل أو يرفع الأمر لأولي الأمر في دمشق، وأحياناً تقع العصابة في خطأ فادح، فذات مرة قام وزير الداخلية وصهر لحود إلياس المر باعتقال عشرات من الشباب بتهمة التخطيط للقيام بعمل إرهابي ضد السفارة الإيطالية، ولابد أن يكون هؤلاء الشباب دائماً من أهل السُّنة.

وكعادتهم مارسوا التعذيب مع المعتقلين، وكان الداعية الإسلامي: إسماعيل الخطيب من ضحايا هذا التعذيب، وما أن علم أهل بلدته بوفاته -رحمه الله- حتى انطلقت مظاهرة صاخبة، انضم إليها شباب من قرى مجاورة في البقاع قرب (عنجر)، مركز المخابرات السورية، وارتفعت هتافات المتظاهرين تندد بالمجرمين القتلة.

فوجئ المندوب السامي العميد: رستم غزالي بالمظاهرة، وبهتافات المتظاهرين قرب مركزه الذي يرهب أهل لبنان من شماله إلى جنوبه، وخشي من تحول المظاهرة إلى انتفاضة تعصف بعرشه، فأخذ المسألة على عاتقه، ووعد الأهالي بفتح تحقيق، وبمعاقبة من تثبت إدانته، والذي علمناه بعد خروج القوات السورية من لبنان أن غزالي عاقب وزير الداخلية إلياس المر لأنه تجاوز الحدود المرسومة له، وعندما حاول المر أن يقف بوجه غزالي، ويقول له: إنه كوزير للداخلية مسؤول عما حدث، توعده المندوب السامي بالقَتْل، وبر بوعده لولا أن المحاولة فشلت كما قال المر في تصريح له نقلته وكالات الأنباء.

وقصارى القول:

فإن علماء لبنان ودعاتها رأوا وسمعوا خلال ثلاثة عقود عجاف ما تفعله الأجهزة: السياسية والأمنية والقضائية بأهل السُّنة والجماعة، رأوا وسمعوا ألواناً شتى من: التَّدمير والقَتْل العشوائي والإبادة الجماعية والاغتيالات.

رأَوْا وسمعوا أخبار الزنازين والمعتقلات التي ضاقتْ بها لبنان، فصاروا يزجُّون

بالكثير الكثير من الضحايا في سجون سورية، والصُّحف اللبنانية اليوم تنشر ما كان يحدث في هذه المعتقلات من تعذيب وتجويع وقهر.

علماء ودعاة أهل السُّنة لم يعد أحد منهم آمن على نفسه، ولا يدري متى يأتي دوره؟ وهل سيكون مصيره الاعتقال أم الاغتيال؟

لم يعد عند علماء أهل السُّنة فارق كبير بين الموت والحياة، وهذا هو سر التحرر من عقدة الخوف عندهم، وهذا الذي أملى عليهم الكلمات التالية التي وردت في بيانهم:

(إن المسلمين السُّنة في لبنان قد نالهم من الضَّيم ما يكفي، ومن الصبر ما لم يعد يُحتمل، وأنهم لن يسكتوا عن حقِّهم ومطالبتهم بكَشْف الجناة المجرمين أياً كانوا! ومعاقبتهم) اهـ.

الفصل الثاني

النصيريون وحلفاؤهم

الصنف الأول: البعثيون.

الصنف الثاني:

* أولاً: النصيريون.
* ثانياً: أحزاب الجبهة التقدمية.
* ثالثاً: منظمة التحرير الفلسطينية.

تمهيـد:

الباطنيون النصيريون الذين استعمروا بلاد الشام منذ أربعة عقود، **هل يثقون بالمسلم السني كائناً من كان؟**

بادئ ذي بدء لابد لي من القول بأنني لا أعني بالمسلم السني مَن كان مُلتزماً بأحكام دينه، عاملاً لنصرة شريعة الله، فبغضهم لمن كان هذا شأنه مفروغ منه، ولا حاجة فيه إلى سؤال وجواب، وإنما أعني موقفهم مِن كلّ محسوبٍ على المسلمين السُّنة حتى ولو كان علمانياً أو قريباً من العلمانية، وإذا اتضح هذا، فسأعرض فيما يلي موقفهم من صنفين من النَّاس:

الصنف الأول

موقف البعثيين منهم من أساتذتهم وزملائهم في الحزب: تسلل النصيريون إلى حزب البعث مثل خفافيش الظلام، واستغلوا فراغ الحزب والحزبيين، فسيطروا على جميع شؤون ومؤسسات الحزب، ثم أطاحوا بقادة الحزب ومؤسسيه الذين كانوا لا يشكون بهم ولا بولائهم لهم وللحزب.

احتفظ الحكام الطائفيون الجدد باسم الحزب ومبادئه، ولكن التطبيق كان يختلف كل الاختلاف، ويُروى عن ميشيل عفلق قوله بعد فوات الأوان: (لا هذا الحزب حزبي، ولا هذا الحكم هو حكم البعث الذي أعرفه).

لم يترك الحكام الجدد القادة المؤسسين وشأنهم، وإنما أرادوا بهم شراً؛ فميشيل عفلق غادر دمشق تحت جنح الظلام، أي قبل وقوع انقلاب ٢٣/ ٢/ ١٩٦٦ بساعات قليلة، ثم عاش بقية عمره غريباً يحلم بالعودة إلى دمشق التي أحبها مرة أخرى، ولو تمكن منه طلابه لقتلوه، وأكرم الحوراني حاولوا اغتياله صباح الثامن من آذار عام ١٩٦٣م، وحاصروا منزله، لكنه كان شديد الحذر، وعنده معلومات أكيدة

عن الانقلاب ورجاله وموعده فغادر منزله قبل الانقلاب بأيام، أما صلاح البيطار الذي توارى عن الأنظار ليلة ٢٣/ ٢/ ١٩٦٦ ثم فر إلى لبنان، وأمضى بقية عمره متنقلاً بين لبنان والعراق وباريس، وفي أوائل الثمانينيات من القرن الماضي اغتالوه في باريس دون أية مراعاة لغربته وشيخوخته أو لفضله عليهم.

أما بقية القادة فكانوا بين قتيل وطريد وسجين، وتكرر المشهد نفسه مع الذين شاركوهم في انقلاب ٢٣/ ٢/ ١٩٦٦م، كانوا يمتصون كل ما عند الشركاء -من غير أبناء الطائفة- من طاقه، ثم يلفظونهم كأوراق محروقة أو نفايات، وهذا ديدنهم منذ انقلاب الثامن من آذار ١٩٦٣م وحتى يومنا هذا، ولينظر من شاء إلى مصير كل من: صلاح البيطار، منيف الرزاز، أكرم الحوراني، أمين الحافظ، مدحت البيطار، نورالدين الأتاسي، يوسف زعين، ناجي جميل، محمود الزعبي، عبدالرؤوف الكسم، حكمت الشهابي، مصطفى طلاس، عبد الحليم خدام، وكثير غيرهم.

هل كان ميشيل عفلق يتصور أن يغدر به ضابطاً صغيراً مثل النقيب صلاح جديد؟ لنقرأ سوية ما كتبه زهير المارديني:

(سبق لي أن كنت إلى جانب الأستاذ ميشيل عفلق في رئاسة الأركان العامة يوم كان رجال حركة الثامن من آذار يؤلفون أوّل وزارة بعد نجاح حركتهم، وقد اختار الأستاذ أن يجلس في غرفة أحد كبار الضباط بعيداً عن حركة الاتصالات التي كانت تجري، وبينما كنا نتبادل الحديث دخل الغرفة ضابط نحيل يضع على كتفيه ثلاث نجوم، وراح يقترب من الأستاذ للسلام عليه، فإذا بالأستاذ يهب واقفاً، ويصافح القادم بحرارة لم يعرفها أحد من الحزبيين، همس القادم بأذن الأستاذ ببضع كلمات ثم انصرف دون أن يلتفت إلى الحضور أو حتى يسلم عليهم.

عندها سألت الأستاذ عن اسم هذا الضابط المتعالي الشامخ بأنفه، فأجابني:

■ النقيب صلاح جديد أحد أركان حزب البعث، ثم راح يغدق عليه من الألقاب ما لم يسبق أن أغدقها على أي حزبي.

عندها وجدت نفسي أهمس في أذن الأستاذ:

■ الله يجيرك منه يا أستاذ فهناك حكمة مأثورة تقول: (اتقوا صُفْر الوجوه بدون علة).

فإذا بالأستاذ عفلق يؤنبني على ملاحظتي تأنيباً قاسياً لم آلفه منه قبلُ.

وفي مناسبة ثانية، وكنت ألاحق عن بُعد تكتيك صلاح جديد للوصول إلى استراتيجيته، سألت الأستاذ عفلق وقد سمعته يغمز من تصرفات جديد:

■ ما هو مأخذك الرئيسي على صلاح جديد؟

فأجاب:

■ إنه ذكي طموح؛ بدأ يخطط، منذ دخل الحزب للوصول إلى قيادته)[1].

وهل كان أكرم الحوراني يتوقع أن يكون ذلك الفتى الصغير الذي تلقفه حزبه منذ كان طالباً في ثانوية حماة هو الذي سيحاصر منزله يوم الثامن من آذار ١٩٦٣م ليقتله وليس ليعتقله، وهذا ما ذكره الحوراني في مذكراته، وذكرته زوجته في مذكراتها؟

ومع أن الحوراني كان بعيد النظر، وتغلب عليه الشكوك، فلا أعتقد أنه كان ينتظر شراً من الفتى محمد إبراهيم العلي الذي أحسن إليه وإلى أهله وطائفته، ونصّب نفسه محامياً عنهم، ثم توسط له ليكون ضابطاً في الجيش، وتدخل لعدم تنفيذ حكم الإعدام بحقه عام ١٩٦٢م، يوم أَنْ قَتَل هو ومجموعة من أبناء طائفته زملاءه الضباط السُّنة الأربعة: نصوح النعال، كامل عرنوس، جميل قباني، صفوت خليل، وكان كل من: محمد عمران، وصلاح جديد، وحافظ الأسد متورطين في هذه المجزرة التي شهدتها حلب بحجة إعادة الوحدة مع مصر، وثبت فيما بعد أن مسألة إعادة الوحدة كانت ذريعة عندهم للسيطرة على الحكم في سورية وتكريس الانفصال.

---

(١) كتاب «الأستاذ» لمؤلفه زهير الماردينى، ص: ٢٨٤، والماردينى بعثي قديم، وإن كان قد تخلى عن الحزب في وقت مبكر، وكان من خواص طلاب عفلق.

أكرم الحوراني كان مجانباً للعدل والإنصاف عندما رمى بثقله من أجل وقف تنفيذ الحكم بالإعدام الذي أصدرته محكمة أمن الدولة بتاريخ ١٧/ ١/ ١٩٦٣م بحق الملازم الأول محمد إبراهيم العلي وآخرين من المجرمين المشاركين في فتنة حلب ٤/ ٤/ ١٩٦٢م، ومن المؤسف أن رئيس الجمهورية آنذاك الدكتور ناظم القدسي كان ضعيفاً فاستجاب للضغط السياسي الذي مارسه الحوراني وحزبه، أما الملازم أول محمد إبراهيم العلي الذي أصبح فيما بعد لواء وقائداً للجيش الشعبي في نظام طائفته، فكان يتهم الحوراني بأنه وراء الحكم عليه بالإعدام.

وخلاصة القول:

هذا هو موقف الحزبيين النصيريين من زملائهم، ويستطيع أي بعثي قديم أن يذكر عشرات الأمثلة على غدرهم بهم. **هذه واحدة.**

أما **الثانية:** فقد جاء في مذكراتهم أو تراجم بعضهم التي كتبها مقربون منهم، أنهم ما كانوا يكنون أي ودٍ أو محبة لمؤسسي حزب البعث: عفلق، والبيطار، والحوراني، وجلال السيد، وهذا يعني ببساطة ووضوح؛ أنهم كانوا يظهرون لهم الود والاحترام، ويبطنون الكراهية والحقد عليهم، وهذه سمة بارزة من سمات الباطنية[1].

(١) محمد عمران، وصلاح جديد، وحافظ الأسد كانوا قادة الجناح العسكري لحزب البعث، وعندما ارتكب محمد إبراهيم العلي وعصابته جريمتهم، وغدروا بزملائهم كانوا ينفذون أوامر قيادتهم العسكرية البعثية، ومع ذلك لم تصدر أحكام بحقهم لأن نظام الانفصال كان ضعيفاً، وعمران وجديد والأسد كانوا مسرحين من الجيش، ومما يجدر ذكره أن الأسد فر إلى لبنان بعد فتنة حلب، وألقت قوات الأمن اللبنانية القبض عليه ثم سلمته إلى سورية، ثم عاد إلى بيته.

الصنف الثاني

حكومات، وأحزاب، وهيئات تنادي بمبادئ مماثلة للمبادئ والشعارات التي ينادي بها حزب البعث: كالوحدة العربية، والاشتراكية، والحرية، والتقدمية، وتحرير فلسطين.

وكان بينهم وبين البعثيين عهود ومواثيق، تظاهر الباطنيون بالتمسك بها إلى أن قويت شوكتهم، وأخلص الشركاء في تعاونهم معهم، فقلبوا لهم ظهر المجن، وبطشوا بهم متنكرين لكل عهد وميثاق، ومن هؤلاء الضحايا:

أولاً: الناصريون:

ويشكلون تياراً واسعاً في سورية، وقد وثقوا بحزب البعث، القيادة القومية بزعامة ميشيل عفلق التي لم تشارك في الانفصال، واتفقوا على أن يعملوا من أجل وحدة سورية مع مصر بزعامة جمال عبد الناصر، ولولا هذا الاتفاق لما استطاع البعثيون الوصول إلى الحكم، وبعد انقلاب الثامن من آذار بأشهر قليلة تنكروا لعهودهم، وأسفروا عن نواياهم المعادية للوحدة، أما الحرية فهم والناصريون سواء.

لم يتحمل الناصريون خيانة البعثيين لهم، ففي ١٨/ ٧/ ١٩٦٣م حاول العقيد جاسم علوان الاستيلاء على وزارة الدفاع وعلى مبنى الإذاعة، ولكن المحاولة فشلت لأسباب منها أن البعثيين كانوا على علم مسبق بتحركات الناصريين، التي كان يوافيهم بها النقيب النصيري محمد النبهان الذي أوهم الناصريين بأنه واحد منهم، وبعد فشل المحاولة بساعات بدأت المحكمة الميدانية عملها في سجن المزة، يقول أكرم الحوراني في مذكراته:

(قالت السيدة نعمت فوق العادة، وكانت مديرة لإحدى المدارس وهي قريبة لزوجتي ومن الناصريات المتحمسات أنه قبض عليها يوم محاولة جاسم علوان ووضعت في سجن المزة، وأن محاكمتها كانت أطول محاكمة إذ دامت ثلث ساعة،

بينما لم تدم محاكمة كل واحد من الآخرين سوى خمس دقائق، وقد اقترح صلاح الضلي رئيس ا لمحكمة إعدامها، ولكن رباح الطويل أحد الأعضاء قال:

لن أسجل على نفسي أنني اشتركت بأول إعدام سياسي لامرأة في سورية)[١].

ذكر جمال عبد الناصر بعد مجزرة المحاكم الميدانية أن حزب البعث انفصالي، وأن قيادته يتبعون أساليب ملتوية تخدم أهداف حزبهم ولا تخدم الأمة العربية، فقال في خطاب له بتاريخ ٢٢/ ٧/ ١٩٦٣م:

(إن الجمهورية العربية المتحدة لا تعتبر نفسها مرتبطة أو ملزمة بأي اتفاق مع الحكومة السورية الحاضرة، لأن حكم البعث حكم فاشستي متسلط ودموي وهو حكم المشانق وحمامات الدم).

كان عبد الناصر -في خطابه- يتحدث نيابة عن كل ناصري داخل سورية وخارجها، ولكن البعثيين كما خدعوه من قبل، فقد خدعوه مرة أخرى، واستدرجوه إلى حرب كانوا يعلمون جميعاً أنها خاسرة، أعني حرب الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م، وبالمقابل فقد خدعوا التيار الناصري في سورية مرات ومرات[٢].

ثانياً: أحزاب الجبهة التقدمية:

وهم خليط؛ فمن جماعة الحوراني الذين اختلفوا معه، إلى أكثر من حزب

---

(١) مذكرات أكرم الحوراني، مكتبة مدبولي، المجلد الرابع، ص: ٣٢٠١.

(٢) البعثيون الذين قادوا المواجهة ضد تمرد جاسم علوان، ونصبوا المشانق لهم، هم من ذراري أهل السُّنة: أمين الحافظ كان الحاكم العرفي، ورئيس المحكمة صلاح الضلي، وعضو المحكمة رباح الطويل.. والناصريون الذين أعدموا أو سجنوا أو سرحوا من الجيش هم من ذراري أهل السُّنة أيضاً، ومن أسموهم بالانفصاليين، وسرحوا من الجيش بعد الثامن من آذار ١٩٦٣، مئات من أكفأ ضباط الجيش، هم كذلك من أهل السُّنة، وهذا بحد ذاته مؤامرة على الجيش. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فقد كان البديل دائماً من أبناء الطائفة النصيرية، حتى صار الجيش مزرعة لهم، وكانوا يتلاعبون بضباط أهل السُّنة وكأنهم أحجار على رقعة شطرنج.

ناصري، إلى الشيوعيين... إلخ، ولهؤلاء مشاركة رمزية في حكم سورية، وكان جمهورهم من قبل نزلاء السجون السورية، وبعد الإذلال والقهر في زنازين البعث الطائفي، وهذه فترة ترويض.. أخرجوهم بعدها من السجون، ومنحوهم ترخيصاً بإنشاء أحزاب، وصار لهم وزراء ونواب، لكنهم ليسوا أكثر من (ديكور للنظام)، يرددون ما يريده، ولكن بنكهة لا تخلو من معارضة.

ثالثاً: منظمة التحرير الفلسطينية:

تحالفوا معها حيناً من الزمن، ورفعوا مثلها شعار تحرير فلسطين من البحر إلى النهر، وعندما دخلوا لبنان في بداية عام ١٩٧٦م زعموا أن هدفهم حماية منظمة التحرير والمقاومة الفلسطينية، ولكن قولهم شيء وفعلهم شيء آخر، ومن أفعالهم:

تكوين منظمة لهم داخل منظمة التحرير هدفها هو شقها، ثم اشتروا ضمائر منظمات أخرى باسم اليسار، وشقوا منظمة فتح، وفي لبنان قاتلوا قوات منظمة التحرير، واستباحوا حرمة المخيمات الفلسطينية، وتعاونوا عسكرياً مَعَ مَنْ قاتل الفلسطينيين، فكان دورُهم من هذه الناحية مثل دور الموارنة أو الشيعة، وأكاد أقولُ مثل دور القوات الإسرائيلية، وفي دمشق أنشأوا فرعاً من أسوأ فروع المخابرات، سمَّوْه «فرع فلسطين»، وقد استضافوا في زنازينه آلافاً من مختلف المنظمات الفلسطينية.

هل استعرض الحريري في ذهنه هذه الأمثلة -وهي معروفة عند الخاصة والعامة في بلاد الشام- عندما بدأ تعاونه مع أسد النصيرية ونظامه؟

وهل دار بخلده أنه ليس أهم عندهم من أكرم الحوراني، وميشيل عفلق، وصلاح البيطار، ومنيف الرزاز، وكمال جنبلاط، وجمال عبد الناصر؟!

وعندما عرض عليه أسد رئاسة الوزارة لأول مرة هل تساءل:

لماذا أنا وليس صائب سلام، أو تقي الدين الصلح وغيرهما ممن أفنى سني عمره في السياسة؟ ولماذا هو -أسد- الذي يفرض على لبنان رجال الحكم فيها؟

في بحثنا هذا سنجيب على هذه الأسئلة من خلال عرضنا لقصة الحريري مع نظام دمشق كيف بدأت؟ وكيف انتهت؟ ثم نتحدث عن اغتيال مفتي لبنان الشيخ حسن خالد -رحمه الله-.

الفصل الثالث

تجربة الحريري مع النظام النصيري

* نبذة يسيرة عن حياة الحريري.
* لبنان في ضمير الحريري.
* الخدمات التي قدمها الحريري للنظام السوري.
* سكوته على المظالم التي لحقت بأهل السنة.
* ويبقى هو المتهم.

نبذة يسيرة عن حياة الحريري

ولد رفيق بن بهاء الدين الحريري في مدينة صيدا بلبنان عام ١٩٤٤م.

يقول عن دراسته:

(أرسلني أهلي إلى مدرسة فيصل وكانت أقساطها بسيطة، أعفتني المدرسة من القسط لأن علاماتي كانت جيدة، بعدها انتقلت إلى المقاصد، ومنها إلى جامعة بيروت العربية، الحقيقة أنها كانت سنوات صعبة).

ويقول عن والده:

(تحول والدي من رب عمل إلى عامل، عندما حصلت الكارثة الثلجية كان عمري أقل من سبع سنوات، أثَّرت بقوة على طريقة حياتنا، إذ صار على والدي أن يكافح أكثر من ذي قبل ليوفرَ لنا شروط العيش والتعليم، كنتُ صغيراً لكن ما حدث بقي محفوراً في ذاكرتي، شعرتُ أنا أيضاً أن عليَّ أن أتحملَ مسؤوليَّتي تجاه الوضع الجديد، وفي أيام العطل المدرسية كنت أرافق والدي وأعمل معه في بساتين الجنوب).

ويضيف:

(عندما كنت صغيراً وأعمل في البساتين، كنت أحصل على خمس ليرات في النهار - أي نحو دولارين ونصف - كنت أشارك في القطاف وفي حمل الصناديق، في الصيف كنت أعمل في قطف التفاح وتعليب التفاح، عملت في: جبل لبنان والبقاع والشمال؛ أعرفها من العمل لا من الإجازات الصيفية.

كنت أجمع بعض ما أحصله صيفاً لأتابع دراستي شتاء، نعم عملت في التفاح في بشري وأهدن وكسروان، لا أذكر تحديداً أول راتب تقاضيته، لكنه كان في حدود المائتي ليرة).

وعندما كان طالباً في الجامعة عمل في مجلة الصياد في قسم المحاسبة، وفي الليل كان يعمل مصححاً في صحيفة الأنوار.

وعن انتمائه السياسي يقول:

(كنت من الشبان الذين أثارت اهتمامهم فكرة القومية العربية، وتعرفت على عدد من قادة هذا التيار قبل بلوغي العشرين، كنت في خط حركة القوميين العرب، وعملت لبعض الوقت في مجلة الحرية).

وحركة القوميين العرب كان يقودها جورج حبش الذي أسس فيما بعد (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) ثم يذكر الحريري أنه كان متأثراً بالشعارات التي نادى بها جمال عبدالناصر، غير أن هذه القناعات تغيرت بعد حرب ١٩٦٧م، وبعد إقامته في السعودية.

ومن الكتب التي قرأها قبل انخراطه في العمل السياسي: العهد القديم، التاريخ العربي والإسلامي، كل كتب نجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، ومصطفى لطفي المنفلوطي.

أما المطربون المفضلون عنده فهم: فيروز وفريد الأطرش وعبد الوهاب.

وعن عمله في السعودية يقول:

(أعتقد أنني اللبناني الوحيد الذي ذهب في ذلك العام ١٩٦٥م، ذهبت وبدأت أدرّس في إحدى المدارس في جدة، كنت في الواحد والعشرين من عمري وكنت متزوجاً، كان راتبي في حدود ستمائة ريال شهرياً، ثم يتحدث عن تطور عمله من مدرس إلى موظف في مكتب للمحاسبة إلى عالم المقاولات، إلى تعرفه على الدكتور ناصر الرشيد الذي كان يأخذ شغلاً من الحكومة، وشركة الحريري تنفذه، والرشيد كان استشارياً للملك خالد وللأمير فهد الذي كان ولياً للعهد، ومن هنا بدأت معرفة ولي عهد السعودية ثم ملكها فهد بن عبد العزيز لرفيق الحريري

(١٩٧٧-١٩٧٨م) ثم تحولت إلى صداقة وثيقة)[١].

تعليق:

وإذاً: فالحريري ليس خريج معهد شرعي أو جامعة إسلامية، ولم يحدثنا في سيرة حياته عن أي تجربة له مع جماعة من الجماعات الإسلامية مهما كان اتجاهها، بل ولم يذكر لنا اسم مسجد من المساجد التي كان يرتادها، ولا اسم عالم تتلمذ على يديه، أو أقام علاقات معه.

وأنا لا أتحدث عن السنوات القليلة التي سبقت اغتياله، فصلاته مع علماء لبنان كان لها شأن آخر سأشير إليه في صفحات قادمة.

ويقول: (إنه قارئ نهم[٢]).

لكنه لم يذكر لنا كتاباً إسلامياً درسه، ذكر أنه درس العهد القديم كله، لكنه لم يذكر لنا أنه درس القرآن الكريم[٣]، وماذا تعني دراسته لكتب نجيب محفوظ دون غيرها.

كان للحريري طريق آخر:

إنه قومي عربي تقدمي وكما هو معروف، فقد كان جورج حبش وأضرابه هم زعماؤه، صحيح أنه تخلى عن حركة القوميين العرب وعن الناصرية بعد حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧م، ولكنه لم يتخل عن وفائه لزملائه في الحركة، فعندما توسعت مشاريعه ومؤسساته التجارية جاء بعدد منهم، وأسند إليهم مسؤوليات مهمة، **هذه واحدة.**

---

(١) مقابلة لصحيفة الحياة (غسان شربل) مع رفيق الحريري بقيت مطوية ولم تنشر إلا بتاريخ ١٣/ ٢/ ٢٠٠٦.

(٢) قبل أن ينخرط بالعمل السياسي.

(٣) لا أتصور أن رفيق الحريري لم يقرأ كتاب الله، فهو ابن أسرة مسلمة سُنية، ولكن لا أدري لماذا قال إنه درس العهد القديم ولم يتطرق لدراسته لكتاب الله؟.

أما **الثانية**: فليس الحريري ابن إقطاعي أو رأسمالي أو ينحدر من عائلة تتوارث السياسة كابراً عن كابر مثل: آل سلام أو آل الصلح أو آل كرامي أو آل الجميل أو آل إده وغيرهم، إنه شاب عصامي كادح، عمل في قطف التفاح منذ أوائل شبابه.

ليس في سيرة حياة الحريري ما يخشاه الباطنيون البعثيون، ولعل هذا الذي دفع حافظ الأسد إلى التعاون معه، وهناك أمور أخرى سيأتي الحديث عنها.

لبنان في ضمير الحريري

عندما منَّ الله على رفيق الحريري، وأصبح اسمه يذكر في قائمة كبار أغنياء العالم، لم يستعبده المال، ويجعل منه رجلاً بخيلاً، جُلَّ همه زيادة ثروته بأي شكل من الأشكال، تذكر الحريري حاله عندما كان عاملاً يتنقل من مزرعة إلى أخرى، وتذكر مرارة الحرب الأهلية التي أكلت الأخضر واليابس، وضاعفت من عدد الفقراء المسحوقين، بل أصبح الشعب كله في عداد الفقراء المحرومين.

تساءل الحريري في هذا الموقف العصيب:

إذا كانت ظروفي المادية حالت بيني وبين إتمام دراستي الجامعية، فلماذا لا أساعد الطلبة المعوزين ليحققوا أمانيهم في الحصول على الشهادات العليا في مختلف أنواع الاختصاصات؟ ولماذا لا يستفيد الأيتام والأرامل وعموم الفقراء من هذا المال الذي أوتيته بعد الحرمان وشظف العيش؟

تحولت هذه التساؤلات إلى مشاريع طموحه، وبدأ بتنفيذها عام ١٩٧٩م فأسس في مدينة صيدا وما حولها: المعهد الإسلامي للدراسات العليا، ثم أنشأ مستشفى ومدرسة ثانوية وجامعة ومركزاً رياضياً كبيراً في منطقة (كفر فالوس) شرق صيدا.

جاء الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م بينما كان الحريري على أهبة الاستعداد لتوسيع مشاريعه خارج صيدا، وطبيعي أن تتعرض مؤسساته للهدم والتخريب في ظل الاجتياح ومقاومته.

وإذاً:

ما فائدة ما يبنيه إذا كانت الحرب المجنونة ستهدمه؟

وهل ينصرف إلى إدارة إمبراطوريته الاقتصادية العالمية، ويترك لبنان يحترق

لأن المسألة أكبر من حجمه؟ أم يستغل صداقاته العربية والعالمية ليكون التحرك شاملاً وعلى مستوى الحكومات؟

أبت نفس الحريري أن يتخلى عن بلده مهما كان الثمن، ولابد له في البداية من استئذان صديقه وزعيمه ملك السعودية فهد بن عبد العزيز، ولم يكن بينهما حواجز، فذهب إليه وطلب منه: العمل من أجل إنهاء الحرب الأهلية، وأن يأذن له ليكون له دور في المسائل التي تبذل.

لم تكن الحرب الأهلية في لبنان غائبة عن ذهن الملك السعودي لاسيما وأن السعودية وسيط دائم في المصالحات العربية، ولها قبول عند معظم هذه الدول، ففي لبنان لها علاقات تاريخية مع السُّنة والنصارى والدروز والشيعة، وفي سورية أقام نظام أسد علاقات قوية مع النظام السعودي منذ انقلابه عام ١٩٧٠م.

لهذه الأسباب فقد كان رد الملك فهد إيجابياً، وزيادة على ذلك، فقد اختار الحريري ليكون مبعوثاً شخصياً له -للملك- في هذه المسألة، ومما يجدر ذكره أن الحريري مواطن سعودي، وكان قد حصل على الجنسية عام ١٩٧٨م.

وبعد هذا التكليف أصبح الحريري عضواً في كل وفد ينتدبه الملك السعودي للإصلاح بين الأطراف المتنازعة في لبنان، أو لترتيب الأمور بين لبنان وسورية، ومن أهم المؤتمرات التي حضرها: جنيف، ولوزان، والطائف الذي أنهى الحرب الأهلية، وكان هو مهندسه.

يتحدث الحريري عن علاقاته مع حافظ الأسد فيقول:

(كان أول لقاء في أواخر ١٩٨٢م أو أوائل ١٩٨٣م على ما أذكر كنت مع الأمير بندر بن سلطان، وكان الغرض وقف النار في لبنان، واستمرت العلاقة، لا أعتقد أن أحداً من خارج سورية عقد هذا القدر من اللقاءات مع الرئيس الأسد، وأمضى معه هذا الوقت، العلاقة مستمرة منذ ١٧ عاماً والتقيته نحو خمسين مرة).

وعن رأيه به يقول:

(عقله استراتيجي، ويهتم في الوقت نفسه بالتفاصيل، السياسيون يمتلكون -عادة- واحدة من هاتين الصفتين، لكن الرئيس الأسد يجمع بينهما، استراتيجي ويهتم بأدق التفاصيل. هذا إضافة إلى مواصفات الوفاء وبعد النظر. جعل الرئيس الأسد لسورية مكانة في العالم. راقب الآن كل الأنظار متجهة إلى سورية في موضوع السلاح إذ لا أمل من دونها).

هل هذه قناعة الحريري بحافظ الأسد أم هو موقف سياسي له أبعاده، ومنها التعريض بشخصية ابنه بشار؟ وهل يعتقد الحريري أن الأسد كان وفياً؟ وفياً لمن؟

إن الحريري لا يجهل الاستبداد والبطش الذي شهدته كل من سورية ولبنان في عهد حافظ الأسد، وهل كان جزار سورية وفياً مع صلاح البيطار وكمال جنبلاط والشيخ حسن خالد ومئات غيرهم؟

وإذا كان الأسد صاحب عقل استراتيجي، ويهتم بالتفاصيل -وهو كذلك- فهذا يعني أنه المسؤول الأول عن الفساد والإجرام والاستبداد المذل في كل من سورية ولبنان، لاسيما إذا أضفنا إلى ذلك مركزيته في الحكم، وتملكه لعدد كبير من أجهزة المخابرات، وإطلاعه الدقيق على تفاصيل ما يفعله مساعدوه، وكبار المسؤولين في الدولة.

نعود إلى السياق بعد هذا الاستطراد:

إلى جانب لقاءات الحريري مع الأسد، فقد كان يلتقي مع فريقه المسؤول عن الملف اللبناني منذ عام ١٩٨٢م، وكان من أبرزهم: وزير الخارجية ثم نائب رئيس الجمهورية عبد الحليم خدام، ورئيس الأركان العامة حكمت الشهابي، وقائد سلاح الطيران ناجي جميل، ورئيس المخابرات العامة علي دوبا.

وعن علاقته بهم بعد خلافهم مع حافظ الأسد وابنه بشار يقول:

(أنا لم أكن يوماً جزءاً من أي حساب سوري داخلي، رفضت باستمرار حتى

مجرد الحديث في هذا الموضوع، فالعلاقات التي أقمتها مع المسؤولين السوريين في الثمانينيات والتسعينيات أقمتها بمعرفة الرئيس حافظ الأسد، لم تكن العلاقات لا سرية ولا غامضة، هذا يصدق على علاقتي مع عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي وغازي كنعان وغيرهم).

اكتشف الأسد بعد لقاءاته الكثيرة مع الحريري مواهب الأخير المتعددة، وقدراته الفذة، ورغبته الصادقة في خدمة بلده وإخراجها من أتون الحرب الأهلية، فعرض عليه في أوائل التسعينيات أن يكون رئيس وزراء لبنان، وبعد المشاورات وافق على العرض الذي قدمه الأسد، لكنه اشترط عليه ما يلي -كما يقول المقربون من الحريري -:

(قال الحريري: سيادة الرئيس أحب أن أوضح لك أن لحم أكتافي هو من خير السعودية، وعلاقتي ممتازة مع مسؤوليها، وإذ أتمنى ألا يحصل أي خلاف بينك وبينها، وإذ أتعهد لك بأن أبذل جهدي لإزالة أي خلاف، فإنني أعتذر إذ أقول لك: إن أي خلاف بينك وبينهم لا أستطيع إلا أن أكون مع السعوديين، وفاءً مني للمملكة لما لها علي من دين في رقبتي).

ابتسم الأسد قائلاً للحريري: (يا أبا بهاء، أنا أطمئنك بأنني لست على استعداد لأي خلاف مع السعودية، وسيظل الحوار والنقاش معها في أي خلاف هو الذي سينهيه).

كان لكل من الأسد والحريري حساباته في هذا الاتفاق، حسابات الحريري بسيطة ومعروفة لدى جميع الأطراف، كان يريد بناء ما هدمته الحرب، وأن يعود للبنان دوره العربي والعالمي، وكان يريد أن يطمئن إلى أن مشاريعه الخيرية لن تحارب أو تمنع، وكان الحريري يعلم أن الطريق لتحقيق هذا الهدف الذي ينشده يمر من دمشق، ويعلم أيضاً أن حافظ الأسد هو من يصنع القيادات المسؤولة في لبنان ابتداء برئيس الجمهورية، ومروراً برئيس المجلس النيابي ورئيس مجلس الوزراء، وانتهاءً بموظف بسيط إذا رغب وأمر، وقال الحريري هذه الحقيقة عند تشكيله لأول

وزارة: (أنا في هذا المنصب لأن الرئيس الأسد هو الذي اختارني).

ولكن، هل كان الحريري يطمح بمنصب رئاسة الوزراء؟

فقد أجاب بقوله:

(لم أحلم في حياتي بأن أكون رئيساً للوزراء، ولم أحلم بأن أصبح صاحب ثروة، أنا دائماً بين المزح والجد، أقول: أنا لست غنياً بالمعنى الشائع، وإن كنت أملك أموالاً).

وإذاً:

فعندما اتجه الحريري نحو لبنان كان يغامر بنفسه وماله ومستقبله، لأن رؤساء الحكومات السابقة كانوا لا يأمنون على أنفسهم، ولهذا فقد غادروا لبنان، والتجأوا إلى فرنسا وسويسرا.

أما حسابات الأسد فكانت متعددة:

منها: أنه -وبحكم تربيته الطائفية والحزبية- يكره الأسر الإقطاعية والرأسمالية، وبالأخص التي كانت تحتكر السلطة من أمثال: آل الصلح وآل سلام وآل الأسعد وآل عسيران، ولهذا فقد استبعدها، وجاء بالحص، ثم وجد المواصفات التي يريدها تتمثل بشخصية رفيق الحريري.

ومنها: أنه كان قد أحكم قبضته الأمنية على لبنان بعد مؤتمر الطائف، وتوقفت الحرب الأهلية، ومن أجل أن يحقق إنجازاً يخدمه لبنانياً وإقليمياً، فقد اختار الرجل العصامي الذي انطلق من الصفر فبنى امبراطورية اقتصادية لنفسه، اختاره ليعيد بناء ما هدمته الحرب الأهلية.

ومنها: بل ومن أهمها أن الأسد يحتفظ بعلاقات متينة مع قادة المملكة العربية السعودية، منذ انقلابه على شركائه في الحكم (جديد/ أتاسي/ زعين) عام ١٩٧٠م، وضمنت له هذه العلاقات غطاء عربياً وعالمياً، ومكنته من دعم الأمريكان له، وهذا وذاك منحه دوراً إقليمياً في المنطقة.

كان ملك السعودية السابق فهد بن عبد العزيز سخياً في المساعدات التي تقدمها المملكة لسورية الأسد، وكذلك كان الحال عندما كان فهد ولياً للعهد، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فقد أجاد حافظ الأسد فنَّ الابتزاز، فهو الذي يصنع مشكلة من المشاكل المتعددة الأنواع، ثم يتوارى خلف جهة زاعماً أنها هي التي صنعتها كأن تكون هذه الجهة: حزب الله أو حركة أمل أو منظمة من المنظمات الفلسطينية أو إيران وغير ذلك كثير، ثم يقدم نفسه كوسيط، ولن تجد الجهة المستهدفة وسيطاً غيره، وتنجح الوساطة بعد أخذه لمبلغ معين من المال، ولهذا فقد كانت بعض الدول تصادقه إتقاء لشره.

وإذاً:

لن يجد حافظ الأسد أفضل من الحريري لرئاسة الوزراء، حيث سيبتزه أولاً، ثم يضمن له استمرار بل وزيادة المساعدات التي يحصل عليها من السعودية ودول الخليج، وسوف تتدفق المساعدات العربية والعالمية من أجل إعمار لبنان، وسيكون للأسد حصة الأسد، ومن ثم لا شيء يخشاه منه.

لم يغير رفيق الحريري خطته بعد الاتفاق، فقد كان يعمل على ثلاثة محاور:

أولاً: المحور السوري:

تقديم المساعدات، ولمن شاء أن يقول الرشوة للنظام السوري ولكبار المسؤولين فيه، ومن ثم لكبار المسؤولين في لبنان لأنهم من توابع النظام السوري.

يقول المدير العام لمؤسسة الحريري الخيرية: (كان رفيق الحريري يقول لي: السوريين ثم السوريين ثم السوريين، وكنت أهتم بالسوريين ثم بالسوريين ثم بالسوريين، وزاد اهتمامي وتحول إلى هاجس يومي، بعد أن نقل العقيد علي حمود إلى بيروت، كنت أمر به يومياً، أو في أقصى الحالات يوماً بعد يوم، أزوره في مكتبه عند العاشرة قبل الظهر، أتناول معه فنجان قهوة، وأتابع إلى مكتبي، أو إلى

أي مكان آخر)[١].

وهكذا أصبح إرضاء رجال النظام السوري هاجساً عند الحريري وعند مدير عام مؤسسته الخيرية، وإذا كان النظام السوري مطمئناً إلى أن أنشطة الحريري في لبنان لا تخرج عن الإطار الذي يريدونه، فهناك الرشوة التي لا يرضون عنها بديلاً، ولديهم وسائل كثيرة لعرقلة أنشطة الرجل إذا لم يملأ جيوبهم من المال.

بدأ الحريري برأس النظام، فقدم له كثيراً من المساعدات، لم يشتهر منها إلا قصر المؤتمرات الذي افتتحه الرئيس حافظ الأسد في احتفال عام ١٩٨٩م، ثم ثنى بكبار مساعدي الرئيس وقادة أمن النظام، فما منهم إلا وقد ابتنى له بيتاً، أو أعطاه شيكاً بمبلغ كبير من المال، أو خصه بسيارة (مرسيدس) مصفحة لا يخترقها الرصاص، أو خص أبناءه وأقرباءه بمنح دراسية في أوربا وأمريكا.

التحقيق الدولي في مقتل الحريري، وما رافقه من حملة إعلامية صاخبة تقودها فضائيات لبنان وصحفها، تحدثت عن كثير من هذه الفضائح:

فمنها: ما قدمه الحريري لنائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام، في كل من لبنان وسوريا وفرنسا، وتسمى هذه المصادر المطلعة كل شيء باسمه.

ومنها: ما ذكره أحد أبناء قرية غازي كنعان في مقابلة صحفية له بعد نحر أو انتحار وزير الداخلية قال: (شملت المنح التي قدمها الحريري جميع أبناء القرية) – والقرية كلها من أبناء الطائفة النصيرية– وإذا كان هذا هو حجم المساعدات التي حصل عليها ضابط أمن من الدرجة الثانية، فكم هو حجم المساعدات التي قدمها الحريري لجميع رجال السلطة في سورية؟

ومنها: شراء الحريري منزلاً كبيراً في الرملة البيضاء ببيروت ومنحه لمدير الأمن العام اللواء جميل السيد، وهذا غير المنح الدراسية التي حصل عليها اثنان من أشقاء السيد على حساب مؤسسة الحريري، أحدهما أصبح طبيباً والآخر مهندساً، وغير

---

(١) مدير عام مؤسسة الحريري الخيرية هو: الفضل شلق. عن كتاب: الفضل شلق: «تجربتي مع الحريري» (ص٢٠٧ – الدار العربية للعلوم).

الأموال الطائلة التي حصل عليها من الحريري، ويقول خصومه بأنها تبلغ عدة ملايين، وكان السيد يردد بأن ما جمعه من مال كله جاء من السياسة، ولم يجمع قرشاً واحداً من عمله الرسمي.

ومنها: أن الحريري قدم مبنى يقع في منطقة الرملة البيضاء غربي بيروت لرئيس الجمهورية الجديد إلياس الهراوي ليقطن فيه، مع مصروف للرئاسة قدره ٢٥٠ ألف دولار شهرياً، ومما يجدر ذكره أن انتخاب الهراوي جاء وفق المقاييس والمواصفات السورية، وتذليل الصعوبات أمام تسلم الهراوي منصبه الجديد إنما هو خدمة لسورية قبل لبنان، وهذا ما فعله الحريري.

ثانياً: المحور الخيري:

في حدود ما أعلم لا أعرف غنياً محسناً في بلادنا استخدم ماله في وجوه الخير مثل رفيق الحريري، فعهدنا بالمحسنين أنهم يخصصون نسبة معينة من أموالهم في وجوه الخير لا يتجاوزونها إلا في حالات نادرة، أما الحريري فقد عرف كيف يستعبد ماله ولا يستعبده المال، يقول في مقابلة له مع صحيفة الحياة (١٧/ ٢/ ٢٠٠٥ م):

(لم أكن أفكر في أي وقت في العمل السياسي بالمعنى الحرفي للكلمة، اهتمامي بالشأن العام قديم لكنه كان يتخذ وجهاً اجتماعياً أكثر من أي وجه آخر، ذهبت إلى السعودية في الستينيات بغية العمل ومواجهة ما ترتب عليّ من مسؤوليات عائلية، عملت هناك واستلزم الأمر بضع سنوات كي أتمكن من الوقوف على قدمي، كانت عليّ ديون سددتها، رتبت وضع أهلي، وكانت هناك مدرسة تعلمت فيها في صيدا وهي مدرسة فيصل وأبلغوني أنهم يريدون إعادة إعمارها فدفعت مبلغاً لم أعد أذكر هل هو ٣٥٠ ألف ليرة أو ٣٥٠ ألف دولار، لكنني أذكر أنه كان نصف المبلغ الذي كان معي، وفتحت هذه الخطوة أمامي آفاق العمل الاجتماعي، ووقفت على حاجة مجتمعنا للخدمة العامة ودورنا في هذا السبيل).

فهو هاهنا يدفع نصف ما يملك لبناء مدرسة، ولا يبالي، هل يسترد عمله

التجاري هذا المبلغ في وقت قصير أم لا؟ ويحدثنا مدير عام مؤسسته الخيرية عن الحوار الذي دار بينه وبين الحريري حول مشروع تدريس الطلبة فيقول:

▪ قاطعه الحريري: أريد الطلبة أولاً.

▪ الطلاب... فهمنا، والقضايا الأخرى.

▪ اعمل ما تريد، ولكن ركز على الطلاب المسلمين[1]، كل طالب مسلم أتم تعليمه دراسته الثانوية، ونجح في القسم الثاني من البكالوريا، يجب أن ترسلوه إلى الجامعة، ومن يأت إليكم من المسيحيين خذوه دون تردد.

▪ تريد أن تعلمهم كلهم؟

▪ كلهم وبالقوة، إذا لزم الأمر.

▪ زعماء لبنان كلهم -تقريباً- عملوا العكس.

▪ أنا لست زعيماً.

▪ إذا لم تسع إلى الزعامة، تأتي إليك.

وفي موضع ثانٍ، يقول مدير عام المؤسسة:

(وفي الرياض حملت إليه ملفين، فيهما دراسات جاهزة عن المؤسسات التي يمكن البدء بها في مجالات التربية والتعليم والتثقيف، ناولته الملف الذي فيه جردة بالاقتراحات كلها، مع ميزانية كل منها، أخذ قلماً وشطب بند تعليم الطلاب.

سألته: لماذا شطبت هذا البند دون سواه؟

أجاب: لأن ميزانيته مفتوحة.

وعندما وصل عدد الطلبة الحاصلين على منح دراسية إلى سبعة آلاف، قال شلق للحريري: (القصة كبيرة والمشوار طويل، وستكلف مبالغ طائلة، فبادره الحريري بشيء من التأفف: أنت أيضاً جئت لتكلمني بالمال؟

(١) يعني المسلمين السُّنة والشيعة، كما يعني الدروز.

قال شلق: هذا واجبي.

قال: قلت لك: ميزانية مفتوحة، وأكرر عليك القول وأشدد: ميزانية مفتوحة).

ولأن الميزانية مفتوحة، فقد كان العاملون في المؤسسة يجوبون المدن والأرياف، ويطرقون على الناس أبوابهم، ويقبلون كل من تتوفر فيه الشروط اللازمة، كما كانوا يجوبون بلدان العالم، ويراجعون الجامعات ليحصلوا منها على قبول العدد المطلوب.

وسئل عن سبب اهتمامه بالطلاب، فأجاب:

(اعتقدتُ دائماً بأن وصول البلاد إلى مستوى تعليمي وثقافي معين يسهل التفاهم بين اللبنانيين لأنه يسهل الحوار والانفتاح، هذا لا يكفي طبعاً، إذ لا بد بموازاة ذلك من تربية وطنية، لا يكفي أن تخرج مجموعة مهندسين في مختلف الطوائف لتجعل منهم شعباً واحداً، الأمر يساهم بلا شك، لكنَّ دورَ التربية الوطنية جوهريّ إضافة إلى رفع المستوى العلمي يضاعف ثروة لبنان وقدرات اللبنانيين الاقتصادية أيضاً، فكرة إيفاد الطلبة فكرة عزيزة على قلبي والأكثر فخراً في حياتي كلها، أنا لم أتعلم بسهولة في أي مرحلة من مراحل حياتي الدراسية، وشعرت دائماً بضرورة توفير الفرص.

أولاً: أريد أن أوضح أن الطلاب الذين أوفدوا هم من انتماءات مختلفة ومناطق مختلفة، وأنا لا أعرف الغالبية الساحقة منهم، يحدث في بعض الأحيان أن يقترب مني شخص ويقول لي: إن ولديه أفادا من المنح، وأصبح الأول طبيباً والثاني مهندساً، وأنا لا أعرف لا الأب ولا الأبناء)[1].

وكانت مؤسسة الحريري في أيام الضنك والعوز توزع المواد الغذائية على بيوت لبنان كلها: ابتداء بمناطق السُّنة، ومروراً بمناطق القوات اللبنانية، ومناطق

(١) صحيفة الحياة، العدد (١٧/ ٢/ ٢٠٠٥)، عن نشرة الوسط ١٩٩٥م، وهو حوار طويل مع الحريري في إطار سلسة «يتذكر».

المردة في زغرتا (روبير فرنجية)، وانتهاء بمناطق الشيعة حيث كان حسين فضل الله لا يزال الأب الروحي لحزب الله، وكان الحزب في بداية نشأته، وفي مناطق حركة أمل قدم محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى مساعدته وحمايته للمؤسسة، ولم تكن المشكلة في توزيع المساعدات، ولكن المشكلة في المعاناة الخطيرة التي يكابدها الرجال الذين يتولون توزيع المساعدات، يحدثنا الفضل شلق عن رحلته إلى زغرتا فيقول:

(كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر، يعبر فيها المغامر زهاء عشرين حاجزاً، بين حواجز القوات اللبنانية والجيش اللبناني والجيش السوري وتنظيم المردة، هذا عدا الحواجز الطيارة التي لا يمكنك أن تعرف إلى أية جهة تنتسب).

ومرت الأمور بسلام في لبنان كله طيلة عدة سنين، وكان الناس يقدرون جهود هذه المؤسسة التي كانت تبني ولا تهدم، اللهم إلا الشيعة لأنهم لا يستطيعون التخلي عن ضغائنهم وأحقادهم، وسيبقى الحريري ورجال مؤسسته صورة طبق الأصل عن عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهم- في نظر هؤلاء الباطنيين، ولو كانوا غير ملتزمين بتعاليم دينهم، يحدثنا مدير عام المؤسسة عن قصة اختطافه من قبل قوات حركة أمل الشيعية، وعن المنح التي قدمتها المؤسسة لحركة أمل.

المشهد الأول:

يقول الفضل شلق:

(كان محسن دلول ورياض رعد ومعهما عبد الله الأمين قد سبقوني إلى بيت رفيق الحريري، وبعد حديث قصير بين الأربعة، اقترح رفيق الحريري أن يذهبوا لزيارة نبيه بري في مقر إقامته في المزة، وكان السجن الشهير لا يزال قائماً، فنكتوا عليه وذهبوا، كل يحمل سيجاراً أطول وأثمن من الثاني، كنت آخر الداخلين، فعلق نبيه بري قائلاً: كلكم تدخنون السيجار، وحتى الفضل شلق علمتموه أن يدخن سيجاراً؟

قاطعه رفيق الحريري وقال: الحقيقة، الفضل شلق يدخن السيجار قبلنا كلنا.

وجلسوا[١] يتناقشون بعدد الطلاب الذين سيعطيهم منحاً رفيق الحريري، وطال الجدل دون الوصول إلى نتيجة، فكل فريق كان يستطلع الآخر قبل أن يحدد موقفه، إلى أن قال محسن دلول: دعوني أجد الحل، وتوجه بالسؤال إلي نبيه بري: كم هو عدد المنح التي تحصل عليها حركة أمل من المؤسسات جميعاً التي تعطي منحاً، من الجزائر، من سوريا، من الاتحاد السوفياتي، من فرنسا، كم يبلغ عددها كلها، من أية جهة كانت؟ ٧٥ منحة؟ ١٠٠ منحة؟ ١٥٠ منحة؟

نبيه بري: نعم، ١٥٠ منحة.

رفيق الحريري: أعطه ٣٠٠ منحة، يا فضل!

الفضل شلق: وسيجار وحبة مسك... إلخ).

أخي القارئ الكريم:

ما هي المكافأة التي قدمتها حركة أمل وزعيمها نبيه بري لمؤسسة الحريري التي أعطتهم ضعف ما أعطتهم: الجزائر وسورية والاتحاد السوفياتي وفرنسا ومؤسسات أخرى من المنح؟ إليك الجواب:

المشهد الثاني:

يقول مدير عام مؤسسة الحريري:

الزمان: الخميس ٢٩/ ٥/ ١٩٨٦م. **المكان**: الرملة البيضاء.

(الساعة أقرب إلى التاسعة والنصف صباحاً، نزلت من شقتي في بناية الريحان المتاخمة لثكنة فخر الدين، قدت سيارتي (الجاغوار) وركب إلى جانبي خالد مزقزق، وقبل وصولي إلى حاجز الجيش في الشارع العام انعطفتُ إلى اليسار ومضيت في الطريق الجانبي باتجاه فيلا عز الدين، فجأة تجاوزت سيارتي سيارة

(١) كل الذين جلسوا من الشيعة، وليس بينهم سنة إلا رفيق الحريري، والفضل شلق.

[BMW] برتقالية اللون، موديل ١٩٨٠م، بينما زركتها سيارة من الوراء، ترجل من السيارة ثلاثة يحملون رشاشات صوبوها علينا، حاول خالد أن يقاوم فمنعته، صرخوا بي: انزل من السيارة، نزلت بهدوء محسوب، صرخوا مجدداً مشيرين بأفواه رشاشاتهم إلى سيارة [BMW] اطلع بالسيارة، خلف، طلعت، ورجع كل منهم إلى سيارته، لم تستغرق العملية دقيقة، رماني أحدهم بجاكيته وقال: غط رأسك بها، غطيت، وغمرتني رائحة عرق صاحبها، ستظل عملية الخطف ملتصقة في ذهني برائحة العرق، كانت بيروت تعيش حرب المخيمات[١]، تذكرت ذلك عند سماعي طلقات نارية، أشتبه بأن تكون طلقات قنص).

هذه هي الصورة الأولى من المشهد الثاني، ولكن من الذين خطفوه؟ وماذا كانوا يريدون منه؟ وكيف أفرجوا عنه؟

يقول بعد استطراد لا يخلو من إطالة:

(وضعوني في غرفة مظلمة، وتأكدت بأنني في منطقة لها مرجعية واضحة عند الظهر، حين سمعت الأذان[٢]، بعد حوالي ساعة من الأذان، بدأت تجول في خاطري الأفكار، ذهبت أول ما ذهبت أفكاري إلى عائلتي، لن أراهم ثانية، هنا ينتهي المشوار، في هذه الغرفة المظلمة الضيقة، وجهينة وعلي، قطع عليّ أفكاري السوداء شاب كان يراقبني، وهو يتصور أنني لم أفطن لعمله، ناداني بلهجة مفضوحة -هذا يعني أنه من الجنوب اللبناني- كان لاحظ الساعة في يدي، ساعة ثمينة، ماركة (كارتييه) الفرنسية، جردني منها، بعد قليل دخل آخر، اللهجة ذاتها، مدّ معي حديثاً عن المؤسسة، كان يريد أن يبرهن لي أنه مسؤول، بدأ بأن اتهم مؤسسة الحريري بأنها تجند ميليشيا، سألته: إذا كانت حفلة التجنيد تجري في بيروت وفي صيدا، في آن معاً، أجاب: لا، ولكن لماذا لا تأخذ المؤسسة طلاباً من الطائفة الشيعية؟ وبعد نقاش لماذا لا تأخذون طلاباً من الشيعة؟ لا، بل نأخذ، غاب عنه المسؤول بعد ساعة

---

(١) يقصد العدوان الوحشي الذي شنه الشيعة ممثلين بحركة أمل على المخيمات الفلسطينية.

(٢) شلق سُنِّي بالهوية، والأذان الذي سمعه خلاف ما اعتاد أن يسمعه، إذاً هو في الضاحية الجنوبية من بيروت.

ونصف أو ساعتين، فقال له: الاتصالات قوية من أجل الإفراج عنك، لكننا لن نفرج عنك، قبل أن ندرس الوضع، أنت صيد ثمين، ولا نقبل أن يعامل الطلاب الشيعة باستخفاف).

رمى رفيق الحريري بثقله، وتحرك المسؤولون السوريون وهددوا الخاطفين، فأفرجوا عنه بعد أن جردوه من حقيبته الشخصية وما بها من أموال ومفكرة وأوراق شخصية، كما جردوه من ساعته الثمينة.

رئيس الفرقة التي خطفت شلق اسمه محمد حميه، وبعد سنتين على حادث الخطف، جاءني -والحديث لـ «الفضل شلق»- في بيتي الجديد في منطقة (قريطم) عقل حمية، شقيق محمد حمية خاطفي، وقال لي: يا أستاذ فضل، كنت أقلب أوراق أخي بعد استشهاده، وعثرت على ورقة تبين لي بعد قراءتها أنه هو الذي خطفك، وأطلب منك أن تغفر له هنا على الأرض، عسى رب السماء أن يغفر له فوق، ابتسمت له وقبلته وقلت له: أنت أخي يا عقل.

حاول نبيه بري -زعيم الحركة- في لقاء له مع شلق فتح الحديث عن تفاصيل عملية الخطف، فصرفه شلق عن فتح هذا الملف، ولكن لم يرق ذلك لبري[1].

أرأيت -أخي القارئ- المكافأة التي قدمها الشيعة -ممثلين بحركة أمل وهي في أوج قوتها- للذين أحسنوا إليهم، وإلى كل لبناني بغض النظر عن دينه واعتقاده؟ ومسرف في الخطأ من يظن فيهم غير الغدر والكيد والخيانة، إنهم هم الذين دمروا المخيمات على رؤوس ساكنيها من الأطفال والنساء والشيوخ، وكان قادة فتح ومنظمة التحرير قد أحسنوا إليهم غاية الإحسان، وعرفات هو الذي اختار لهم اسم حركة أمل وأنفق عليها لتكون عوناً لهم ضد إسرائيل.

وهم اليوم الذين يقاتلون في العراق كل من اختار له أهله اسم عمر -رضي الله عنه- الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي هزم جيشه المظفر رستم والهرمزان

(١) كل ما أنقله عن مدير عام مؤسسة الحريري الخيرية في هذا البحث، مصدره كتاب: الفضل شلق، تجربتي مع الحريري، والناشر الدار العربية للعلوم، هذا وقد لخصت ما نقلته مع تصرف لا يخل بالمعنى.

وطهر الأرض من عقائد المجوس.

نشرت وكالات الأنباء الخبر التالي: (عثرت الشرطة العراقية في منطقة العديل في العاصمة بغداد على ١٤ جثة لعراقيين من السُّنة تم قتلهم برصاصة في الرأس وجميعهم يحملون اسم عمر).

وأوردت صحيفة (صنداي تليغراف) البريطانية أن الجريمة الوحيدة لهؤلاء الستة هي أنهم حملوا اسم عمر، نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب، وتنقل الصحيفة عن الشرطة العراقية قولها إنها عندما عثرت على جثث العراقيين السُّنة كانت بطاقاتهم الشخصية موضوعة على صدورهم، ونسبت الصحيفة لأحد ضباط الشرطة قوله: (اتضح أن بعض الضحايا كانوا قد تلقوا رسائل تهديد تطالبهم بتغيير أسمائهم).

وتقول الصحيفة إنه تم نقل الجثث إلى مستشفى اليرموك للفحص الطبي من قبل الطبيب ياسر عمار الذي قال كلهم قتلوا بطريقة مشابهة عبر رصاصة في الرأس)[1].

كان باستطاعة هؤلاء لو أرادوا الخير لطائفتهم ولأمتهم إنشاء مؤسسة خيرية أضخم من مؤسسة الحريري، لاسيما وأن إيران تقدم لهم ميزانية تعجز عنها بعض الدول، ويأتيهم الخمس من كل مكان، وبينهم أغنياء كبار، فكل المقومات متوفرة لديهم، ولا يلامون على إنشاء مثل هذه المؤسسة، لأن التنافس في عمل الخير مشروع، لكنهم أبوا إلا التنافس في وجوه الشر، كالقَتْل والإبادة وشراء ذمم من لا ذمة لهم.

نعود بعد هذا الاستطراد الذي يقتضيه المقام إلى الحديث عن مؤسسة الحريري الخيرية: حصلت مؤسسة الحريري على جائزة الملك فيصل، وذلك مناصفة مع البنك الإسلامي، وقد أقيم في العاصمة السعودية الرياض، وأعلن المسؤول عن مؤسسة فيصل أسماء الفائزين بالجائزة المقسمة إلى أربعة فروع، وعدد بيان تُلي خلال الاحتفال الإنجازات التي حققتها مؤسسة الحريري، وتأهلت بموجبها لنيل

(١) من الفضائيات التي نقلت الخبر: الجزيرة، والعربية في ٢/ ٤/ ٢٠٠٦م.

الجائزة، وهي على النحو التالي:

* مساعدة أكثر من ثلاثين ألف شاب وشابة لتلقي تعليمهم الجامعي في تخصصات مختلفة، منهم ٨٢٥ حصلوا على درجة الدكتوراه، وإنشاء مدارس ومعاهد جامعية وتقنية في لبنان.

* ترميم مساجد عريقة في لبنان وبناء مساجد جديدة على طراز معماري إسلامي.

* رعاية مؤسسات العجزة والأيتام في لبنان طيلة العقدين الماضيين والإسهام في أعمال إغاثة في دول عربية وإسلامية عدة، ودعم مؤسسات علمية في الدول العربية.

* إنشاء مراكز صحية واجتماعية في لبنان.

ثالثاً: محور إعادة إعمار لبنان:

«في أول إطلالة لرفيق الحريري خلال الاحتفال السنوي للجامعة الأمريكية عام ١٩٩٢م، إيذاناً بدخوله المعترك السياسي، حدد آفاق مشروعه حين قال: (قضيتي هي البناء والإعمار والتنمية، وسأدافع عن هذه القضية دفاعي عن لبنان ودوره ومستقبله، وإذا كانت هناك من مهمة لرفيق الحريري، فهذه هي مهمتي).

حلم إعادة إعمار لبنان وقلبه النابض ببيروت كان حلمه الأكبر الذي أراد أن يرتبط اسمه به، كان الحلم يراوده أيام عهد الرئيس أمين الجميل، يوم حمل إليه عام ١٩٨٣م مجسما لوسط بيروت وكيفية إعادة الروح إلى قلب العاصمة، لكن الحلم أخذ يتحقق مع وصوله إلى سدة الرئاسة الثالثة بعد الانتخابات النيابية الأولى عقب الحرب في العام ١٩٩٢م، حيث تحول لبنان إلى ورشة إعمار كبرى، كلفت مليارات الدولارات وأدت إلى اعتراضات سياسية حول الأولويات، والدور الذي رسمه لمستقبل البلاد على خلفية التسوية السلمية وحساباته بأن السلام آتٍ، وأن الصراع

العربي الإسرائيلي على طريق الحل»[١].

ويحدثنا الفضل شلق عن الجهود الجبارة التي بذلها الحريري من أجل إعادة بناء ما هدمته الحرب: (يقول انتبه، نحن نتكلم عن شهور حزيران وتموز وآب وأيلول ١٩٨٢ م، وهي شهور الاجتياح الإسرائيلي، وشهور القصف المجنون، قصف بلا روية ولا هوادة، قصف بلا شهامة عسكرية، البر والبحر والسماء مباحة لهم، في هذا الظرف اتصل الحريري بالفضل، وشكره ثم أضاف: ولكن عندنا مهمة أسمى وأجدى، ثم ينقل ما دار بينهما من حوار:

* وما هي هذه المهمة المستعجلة والسامية، من غير شر؟

* ترميم المدارس التي نسفوها في صيدا.
* خَرِسْتُ، لم أُحِرْ جواباً.

سأل، وقد تأكد أنه أصاب مني مقتلاً: فضل لا تزال معي؟

* نعم.

* المدارس كلها، ليس المدارس الإسلامية ولا المدارس الرسمية من الإرساليات إلى مؤسسات التربية التعليم كلها، من أجل العلماني والعلمانية.

* لكنهم لا يزالون هنا، وقد يدمرونها ثانية!

* نرممها ثانية وثالثة ورابعة، ليعرفوا أنهم ليسوا أقوى منا، يتغلبون علينا بقوة السلاح والوحشية، لن ينالوا من إرادتنا، وقد كان.

١- تنظيف بيروت:

وهو غير إعادة إعمار بيروت، فالأول كان عام ١٩٨٢م، والثاني كان في عام ١٩٩٢م، ففي عام ١٩٨٢م كانت القوات الإسرائيلية لا تزال تحاصر بيروت، وقوات منظمة التحرير أجبرت على مغادرة لبنان، وبيروت تحولت إلى مستودع نتن

(١) مجلة الأسبوع العربي: ٢١/ ٢/ ٢٠٠٥م.

من الأوساخ والقمامة، والناس في حالة من اليأس والإحباط يرثى لها.

رفيق الحريري من الرياض يتصل هاتفياً بساعده الأيمن الفضل شلق -الذي لا يزال في صيدا- يأمره بتنفيذ مهمة بناء وترميم المدارس والمؤسسات التعليمية التي دمرها القصف الإسرائيلي:

الحريري: تنظيف بيروت؟

شلق: قلت كأنني فكّرت بالموضوع من مائة سنة: أنظفها! طبعاً... طبعاً.

الحريري: كم يلزمك من الوقت لتصل إلى بيروت؟

■ ساعة ساعتين، حسب الحواجز الإسرائيلية.

الحريري -ولم يزد حرفاً-: امشِ فوراً، صائب (سلام) بك بانتظارك.

وفي موضع آخر يقول شلق:

(لدى وصولي إلى مدخل بيروت الجنوبي، طريق صيدا القديمة، رأيت أكوام الركام وتلال السواتر، وكتل الباطون والدشم، وجبال الزبالة... صرت أحدق بها، وأحاول أن أتفحص وأتأكد مما تتألف، وأقدر أحجامها وأوزانها، وأشم روائحها، وأخاف من كمياتها، وما كدتُ أصل إلى بيت صائب بك سلام، حتى كنتُ أتساءل: إذا لم تتعمد إسرائيل إلحاق هذه الأضرار كلها ببيروت، بهدف تصعيب عملية تنظيفها، وإخراجها من تحت الأنقاض والركام، وجعلها مهمة مستحيلة، فتختنق وتنشل إن لم تمت ويتعطل دورها).

ويقول عن منطقة الفاكهاني:

(رأيت بيوتاً وشققاً صغيرة، كانت تستر عائلات كبيرة وفقيرة، وجاء العدوان ودمرها بحجة ضرب الفدائيين، ماذا سيحل بهذه العائلات؟ من سيعوض عليها؟ كيف سيعيد أبناؤها ترتيب أوضاعهم؟ دمار مخيف، ولم أتمكن من ضبط مشاعري، فجأة شعرت بأولى انفعالاتي لرجل مسؤول وصاحب قرار يمكنه أن يؤثر في مصائر رجال آخرين، استهولت حجم الخراب، واستفظعت كبر المسؤولية، وخفت أن أبدأ

بحملها، فتسحقني، وأحسست بأنني في حاجة إلى البكاء، أخذت ناحية جدار لا يزال واقفاً، وبكيت، وانطلقت ماكينة تنظيف بيروت.

كانت مجموعة الحريري المسؤولة عن تنظيف بيروت، قد استنفرت الناس من بيروت وغيرها، فمنهم من كان يعمل متطوعاً، ومنهم من كان يتقاضى أجراً على عمله، وفي اليوم الموعود انطلقت ستون شاحنة وقلاباً، وثلاثون جرافة، وهذا ما أمكن استئجاره بعد جهد جهيد... اقتصر الإنجاز في اليوم الأول ٦/ ٩/ ١٩٨٢م على (١٣٥) نقلة، كان الناس لا يكادون يصدقون، أما الحريري فقد كان يرى أن يكون الرقم (١٠٠٠) نقلة، وأمام عدم توفر الآلات اللازمة، اشترى من جدَّة (٤٠) آلية ثقيلة بمبلغ قدره (١٣) مليون دولار نقداً، وجرى شحنها على باخرة فرنسية، وصلت الباخرة إلى مرفأ بيروت في أوقات بالغة الصعوبة، فالقوات الإسرائيلية ظنَّتْ أنها أسلحة ثقيلة، ومسؤولو المرفأ حاولوا تعقيد الأمور، وبيروت بل لبنان كله عمته الفوضى والتوتر بسبب اغتيال الرئيس المنتخب بشير الجميل قبل أن يتسلم مهام عمله، لكن فريق العمل ذلل هذه المصاعب، وضم الآلات الثقيلة المستوردة إلى الأسطول الذي حول بيروت كلها (الغربية، والشرقية، والضاحية الجنوبية) إلى ورشة عمل تواصل الليل مع النهار، وتتعاون مع الجميع لا تفرق بين أحياء السُّنة والشيعة، ولا بين أحياء المسلمين والنصارى، ونجح الفريق حتى في تنظيف بيروت من القمامة التي كانت البلدية عاجزة عن النهوض بهذا الواجب المترتب عليها بسبب ظروف الحرب).

٢- إعادة بناء الوسط التجاري:

لم يتوقف فريق العمل عند تنظيف مدينة بيروت، فبعد انتهاء مهمته التي أنقذت المدينة من الأمراض والأوبئة، كلفهم الحريري بإصلاح (المجارير) لأنها لم تعد تتحمل الضغط، ثم جاء بفريق فرنسي لإزالة الألغام، وبعد هذا وذاك وضعوا خطة من أجل إعادة (تنوير) مدينة بيروت التي تحولت في الليل إلى ظلام دامس، وكأنها بلدة تعيش في العصر الذي سبق اختراع الكهرباء، ومن أجل ذلك فقد استورد الحريري

(٢٠٠٠) عمود كهرباء وبدأ العمل، وهكذا استمر إعادة البناء في مجالات مختلفة، لكن حلمه في إعادة بناء الوسط التجاري لمدينة بيروت، كانت تواجهه معارضة شديدة من معظم الأطراف السياسية -شركة الحاكمة- إن لم أقل كلها، وكان لكل طرف وجهة نظره فيما يبديه من معارضة، لكن جلها يتعلق في شخص الحريري، وليس في جوهر المشروع، لقد ساءهم هذا الوافد الجديد إلى منتدى السياسيين: من أين جاءته هذه الشعبية الكبيرة التي يفتقدها أي سياسي غيره؟ وكيف يكون الحال إذا نجح هذا المشروع وارتبط باسمه؟ ولهذا فما كانوا يكتفون بالمعارضة العلنية، وإنما كانوا يلجأون إلى تلفيق الإشاعات في الخفاء، كقولهم: الحريري مقاول، ويريد تحويل لبنان إلى ورشة عمل تعمل لحسابه، ووراء هذه الإشاعات مخططات باطنية، وأخرى لا يحركها إلا الحسد والكراهية.

في أواخر عام ١٩٩٢م شكل الحريري أول حكومة له، وطرح مشروع الوسط التجاري في مجلس النواب، واحتدم النقاش حول تعديل القانون لجهة إنشاء شركة عقارية مساهمة تتولى تنفيذ هذا المشروع... وطال الجدل، وكلما ذلل الحريري صعوبات مسألة مثارة، طرحوا صعوبات أخرى... وأخيراً فما أقر المشروع في المجلس النيابي إلا بعد أن هدد رفيق الحريري بنفض يده من لبنان، وبعد تدخل الرئيس السوري بالذات لحسم الموضوع، وأخيراً تحقق المشروع الذي كان يحلم به الحريري، وكان قلما يجد من يوافقه عليه... كان أصدقاؤه عندما يستمعون إلى حديثه عن إعادة إعمار وسط بيروت بطريقة عصرية تناسب مكانة هذه المدينة يقولون له: (هذا منك إغراق في الخيال والتأملات) ومن هؤلاء الأصدقاء الأخضر الإبراهيمي وزير خارجية الجزائر الأسبق، ومنسق اللجنة الثلاثية المكونة من وزراء خارجية كل من السعودية والجزائر والمغرب، وبحكم مهمته كان يتردد على لبنان، يقول الإبراهيمي في مقابلة له مع إحدى الفضائيات بعد اغتيال الحريري: (زرت لبنان واتصلت أطلب أن يحدد الحريري لي موعداً لمقابلته) فأجاب: (لن أراك إلا بعد أن تزور وسط بيروت، ففعلت ورأيت المعجزة، وتذكرت ما كان يدور بيني وبينه من مناقشات).

لم يكن الحريري في أي من هذه المحاور الثلاثة يفكر بمخالفة رغبات السوريين التي هي عنده بمثابة الأوامر، أو إن شئت فقل: خطاً أحمر، وتجاوزه شر مستطير.

فالمحور الأول: خاص بالسوريين دون غيرهم سواء كان رشوة أو منحاً دراسية، أو مشاريع عمرانية مثل قصر المؤتمرات.

والمحور الثاني:لا بد وأن يأخذوا نصيبهم منه سواء كان عملاً خيرياً أو مشروع إعادة إعمار بيروت ثم لبنان، فالحريري خصص شيئاً من أعماله الخيرية لسورية.

أما إعادة إعمار لبنان فهم يأخذون قسطاً من هذا المشروع بالحق أو بالباطل، وهو بغض النظر عن سرقاتهم لقطع الغيار والآلات ومواد البناء... وغيرها، ومن ثم فهو يوصي مساعديه بإرضاء السوريين ويردد دائماً هذه الوصية.

الخدمات التي قدمها الحريري للنظام السوري

قدم الحريري خدمات جلى للنظام السوري، وأكاد أقول: إنه لم يرد للرئيس السوري طلباً كلفه به، وتصنف بعض هذه الطلبات في عداد أخطاء الحريري، هذا ونذكر فيما يلي أهم الخدمات التي قدمها الحريري للنظام السوري:

أولاً: اتفاق ١٧ أيار:

كان أمين الجميل رئيساً للجمهورية عندما وقع لبنان اتفاق ١٧ أيار ١٩٨٣م مع إسرائيل، ويقضي هذا الاتفاق -كما يقول الجميل- بخروج القوات العسكرية الغربية من لبنان، وانتشار الجيش اللبناني في جميع الأراضي اللبنانية، ويؤكد الجميل:

(وإني لا أزال عند اقتناعي بأننا على الرغم من انفضاض الأصدقاء عنا، وتحول بلادنا أرضاً محروقة، وتعرض وحدتنا الوطنية لأقسى المحن، قد توصلنا إلى اتفاق ممكن في الظروف التي كانت قائمة آنذاك، وأفضل دليل على ذلك وقوف رجال السياسة في لبنان بشدة إلى جانبنا، وكبار المسؤولين السياسيين الذين استشرتهم من رؤساء جمهورية سابقين، ورؤساء حكومات وأرباب السياسة من جميع الفئات، أعربوا لي عن تأييدهم الصريح والعلني للنهج الذي نسير عليه، وعندما عرض الاتفاق على مجلس النواب في ١٦ أيار ١٩٨٣م، صادق عليه بأكثرية (٦٥) صوتاً ضد اثنين وامتناع أربعة عن التصويت)[1].

عارضت سوريا الاتفاق، ودعت إلى إلغائه، وأعقبت ذلك بقصف من المناطق التي تحتلها على المناطق التي تولت شأنها السلطة الشرعية بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي منها، وردت القوات الإسرائيلية على القصف بقصف مماثل، وهنا بدأ دور الحريري لإلغاء هذا الاتفاق، فيقول:

(١) الرهان الكبير، منشورات دار النهار، المؤلف أمين الجميل ص ١١٥.

(شعرت في تلك المرحلة أن اتفاق ١٧ أيار لا يمكن أن يمر، والواقع أنه لو أبرم لأدى إلى تحطيم البلد تماماً، فبمجرد التوقيع أدى إلى تخريب الوضع، فماذا يمكن أن يكون عليه الحال لو أبرم؟ بهذا المعنى كنت من الناس الذين لعبوا دوراً أساسياً في تجنيب البلد الكارثة الكاملة، وقد حملت ورقة إلغاء الاتفاق من الرئيس أمين الجميل، ونقلتها إلى دمشق، وتوصلنا إلى وقف لإطلاق النار وحضرنا لاجتماعي جنيف ولوزان).

ويتحدث الحريري عن لقاء له مع السفير الأمريكي:

(إن السفير الأمريكي في دمشق كان (بيغانيللي)، زارني وكان الأسطول الأمريكي لا يزال موجوداً، وسألني عن رأيي فقلت له:

«إنني لا أعتقد بأن لبنان سيبرم صلحاً مع إسرائيل ما لم يكن في إطار تسوية شاملة أساسها سورية، الكلام الذي قاله أحد زعماء إسرائيل (موشي شاريت) عن أن لبنان هو البلد الثاني الذي سيقيم سلاماً مع إسرائيل، وأن البحث يدور على البلد الأول، هذا الكلام غير صحيح، ولبنان لا يمكنه أن يتحرك في أي شكل من أشكال التسوية بمعزل عن سورية».

استغرب السفير كلامي وقال:

«أنت تعتبر إذاً أن سياستنا خطأ».

فقلت له: «نعم، وأكدت أن لبنان لن يعقد صلحاً مع إسرائيل بمفرده، ربما كان من الأفضل أن يكون لبنان آخر دولة عربية تعقد صلحاً مع إسرائيل، ولكن إذا حصل صلح (سوري - إسرائيلي) فإن لبنان يمكن أن يكون في المرحلة الثانية، في تلك المرحلة كان من الصعب على الأمريكيين تصديق مثل هذا الكلام، فقد ألقوا بثقلهم في العملية والمفاوضات جارية، أما أنا فقد اعتبرت أن الصلح (اللبناني - الإسرائيلي) بمعزل عن سورية هو نوع من الانتحار، لأن هذا الصلح يمس مباشرة المصالح القومية السورية، ولن يقبل به أي حكم أو أي نظام في سورية كما لن ينجح

في تحقيقه أي حكم في لبنان»)[١].

كان الحريري في هذه المفاوضات متبنياً لوجهة النظر السورية، ومن شاء فليقل كان وطنياً صادقاً يعلم خطورة توقيع حكومة لبنان لصلح مع إسرائيل على حساب سورية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان الحريري محاوراً لَبقاً مهذباً، وكان الذين يفاوضونه يعلمون أنه مدعوم من عدد مهم من البلدان العربية والعالمية، ومن لا يقنعه هذا ولا ذاك فقد كان يعرف كيف يشتريه بالمال.

ثانياً الاتفاق الثلاثي:

وقعته في دمشق كل من المليشيات: الدرزية (وليد جنبلاط)، والشيعية (نبيه بري)، والمسيحية (إيلي حبيقة) بتاريخ ٢٨/ ١٥/ ١٩٨٥م.

يقول رفيق الحريري عن دوره في هذا الاتفاق:

(بدأت اتصالات مع حبيقة «إيلي» في بيروت ثم اقترحتُ عليه الخروج من لبنان ليتسنى لنا البحث في المسائل بهدوء، فزار فرنسا سراً، وأقام في منزلي قرب باريس نحو أربعة أيام أمضيناها في التشاور في سبيل إنهاء الحرب، الواقع أن البحث تركز على أسئلة أساسية من نوع: ماذا تريد القوات؟ وهل للفريق الذي تنتمي إليه مصلحة في استمرار الحرب مع الأطراف الأخرى؟ وهل لها مصلحة في استمرار المواجهة مع سورية؟ وهل القوات مستعدة لإزالة أسباب هذه المواجهة بكل تشعباتها الداخلية والإقليمية؟ وبعد مناقشات طويلة بيني وبينه تبلورت لديه مجموعة أفكار، فاقترحتُ عليه أن يوجه كتاباً إلى القيادة السورية بغية التمهيد لحوار، وهذا ما حصل ولقي الكتاب صدىً إيجابياً في دمشق، وفتح الباب للاتصال المباشر، كان همي الأول وقف القتال، ونقل الفرقاء من الرهان على المدفع إلى الرهان على الحوار، وهنا توقفتُ عن متابعة الموضوع، وشارك في الاتصالات

(١) نشرت الوسط هذا الحوار مع الحريري في عام ١٩٩٥م، وأعادت الحياة نشره في ١٧/ ٢/ ٢٠٠٥م.

الوزيران ميشال المر وميشال سماحة)[١].

رواية الحريري عن لقائه مع حبيقة تثير أمامنا الأسئلة التالية:

* من هو إيلي حبيقة؟ وهل كان الحريري يجهل سيرته الذاتية؟

* هل هذا كل ما حدث بين الحريري وحبيقة أم هناك اختصار مخل في الرواية؟

* كيف يقبل الحريري أن يقوم بوساطة تختزل لبنان كله في ثلاث ميليشيات؟

من هو إيلي حبيقة؟

▪ كان حبيقة أول من انتدبته القوات اللبنانية المسيحية كمنسق بينها وبين الإسرائيليين، وكان موضع ثقة قادة المخابرات الإسرائيلية، ومقرباً من الجنرال شارون بالذات.

▪ كان قائد القوات المسيحية التي اجتاحت مخيمي صبرا وشاتيلا في: ١٦/ ٩/ ١٩٨٢م بعد مقتل بشير الجميل، وهو صاحب شعار:

«أبيدوهم ونظفوا المخيمات»

وحتى شارون وقواته العسكرية التي كانت تحاصر المخيمين فقد استنكروا مبالغة حبيقة وقواته في سفك دماء المدنيين، ومبعث الاستنكار خوفهم من فضيحة عالمية، وهذا الذي حدث، وكانت هذه المجزرة من أهم أسباب سقوط حكومة بيغن، أما النظام الباطني في دمشق فقد تبنى حبيقة بعد هذه الفعلة الشنعاء وجعل منه ركناً من أركان النظام اللبناني بعد اتفاق الطائف.

▪ لم يكن حبيقة ليتردد في ارتكاب أي عمل منحط، كان وهو في ظل النظام السوري يتجر بالمخدرات، وكان قاطع طريق يختطف عند حاجته إلى المال كبار الأغنياء، ولو كانوا أصدقاءه، ولا يفرج عنهم إلا بعد دفع مبلغ من المال، كما فعلوا مع (روجيه تمرز)، وخلوا سبيله بعد أن دفع لهم مبلغاً قدره (خمسة ملايين دولار)،

(١) صحيفة الحياة: ١٧/ ٢/ ٢٠٠٥ م، مصدر سابق.

ومع (ماريو سيمونيدس) وهو صديق حميم لهم، وبعد التعذيب دفع لهم (١٥٠) ألف دولار أمريكي... أما علاقاته النسائية المتوحشة فليطلع من شاء على ما كتبه مرافقه (روبير حاتم)، ولا أنصح بذلك لغير الباحثين.

▪ يقول الزعيم المسيحي اللبناني (ريمون إده) الذي نأى بنفسه عن الحرب الأهلية منذ بدايتها: (إيلي حبيقة القوي المتعطش للدماء والانتقام، كان يحارب الكتائب، وقد نشر الرعب في لبنان، عندما كان حبيقة يقطع أذني جندي سوري كان يعلقهما بخيط، ويبقيهما للذكرى كان عميلاً مهماً للموساد، أريد أن أسأل حبيقة - والكلام ما زال لريمون إده-: كيف يمكن له أن يكون مخلصاً عميلاً إسرائيلياً ثم يتعاون مع السوريين؟ كيف يمكن أن يكون مخلصاً للبنان؟ كيف يستطيع أن يعارض أمراً صادراً من دمشق؟ هذا متروك لحكم القارئ)[1].

▪ رفيق الحريري المهتم بالشأن اللبناني لم يكن يجهل سيرة (إيلي حبيقة) الذاتية، ومنها هذا الذي ذكرناه عنه، وهاهو (الحريري) يقول في المقابلة التي نقلتها عنه الحياة (٢٧/ ٢/ ٢٠٠٥م): (إيلي حبيقة يقول ما حرفيته: إن أول مسلم رأيته ولم أطلق النار عليه هو رفيق الحريري).

ننتقل إلى السؤال الثاني:

هل هذا كل ما حدث بين الحريري وحبيقة، أم هناك اختصار مخل في الرواية؟

الحقائق التي بين أيدينا تؤكد أن رواية الحريري فيها اختصار مخل، وسنبين فيما يلي أهم ما قاله مرافق حبيقة عن لقاءات الحريري مع حبيقة، يقول روبير حاتم:

(اتصل إيلي حبيقة بالسوريين عام ١٩٨١م، بواسطة اللواء سامي الخطيب، وكان ذلك بتكليف من رئيسه بشير الجميل، وفي أول زيارة ١٩٨١م، استقبل رفعت الأسد حبيقة في دمشق، وبعدها بشهر واحد ١٩٨٢م، اجتمع مع جميل وأخيه رفعت الأسد في باريس، ثم زار دمشق واجتمع مع عبد الحليم خدام مرتين، وإذاً ليس

(١) كتاب الموساد الذي نشرته دار لاسيتي، عن كتاب «من إسرائيل إلى دمشق» لمؤلفه روبير حاتم الذي كان مرافقاً شخصياً لحبيقة، ويلازمه مثل ظله.

صحيحاً أن حبيقة لم يجتمع مع السوريين إلا بعد لقائه وحواره مع رفيق الحريري عام ١٩٨٥، **وهذه واحدة.**

وأما **الثانية**: فلم يكن اللقاء بينهما حسب الرواية التي ساقها الحريري، يقول المرافق الشخصي لحبيقة:

(كان يشارك في هذه الاجتماعات كل من رفيق الحريري وجوني عبدو المدير السابق لمخابرات الجيش اللبناني، وسركيس نعوم الصحفي في جريدة النهار، وميشال سماحة، وميشال المر، بالإضافة إلى إيلي حبيقة، ومن هذه الاجتماعات: اجتماع في جزيرة تكريت باليونان دام ثلاثة أيام، واجتماع آخر بمنزل الحريري في ضواحي باريس، وعدة اجتماعات في بيروت.

وبعد هزيمة حبيقة على يد سمير جعجع، نقلته طائرة الحريري من قبرص إلى باريس، وهناك استقبله مدير أعماله (الدارا) ونقله إلى منزل رئيسه رفيق الحريري، فمكث فيه مع عائلته عدة أيام، ثم انتقل مع قواته -ولكن على مراحل- إلى دمشق، أما زوجته فقد انتقلت إلى سويسرا، وفيها أقامت بمنزل الحريري أيضاً، وكان بصحبتها أختاها وزوجة شفتري بالإضافة إلى حارسين شخصيين هما: توماس سويدان ووليد الزين).

كان رفيق الحريري بتكليف من نظام دمشق يتولى الإنفاق على حبيقة وحاشيته، يقول روبير حاتم عن الحريري:

(كان يرسل (٤٠٠) ألف دولار أمريكي كل شهر معبأة بحقائب ملابس في صناديق شرائط فيديو فارغة، كنت أستلم البضاعة من منزل الحريري في أبي رمانة، هذا وكان ميشال المر يرسل مبلغاً قدره (١٥٠) ألف دولار أمريكي شهرياً، وكان حنا موسى يسلمها إلى حبيقة مباشرة أمامي).

وعن الاجتماعات التي سبقت هزيمة حبيقة، يقول مرافقه الشخصي عن الحريري:

(عند نهاية كل اجتماع، بصرف النظر إذا عقد ببيروت أو في الخارج، كانت توزع حقائب (سمسونايت) مليئة بالدولارات الأمريكية لكل مشارك)[١].

رواية المرافق الخاص لحبيقة قد يكون فيها بعض المبالغة، ولكنها على العموم صحيحة، ويؤيدها كثير ممن كتب عن أحداث لبنان في تلك المرحلة، ولو كانت القضية ليست أكثر من حوار وقدرة على الإقناع لكان ميشال المر، وميشال سماحة، وغيرهما من النصارى اللبنانيين أقدر على الإقناع إيلي حبيقة من رفيق الحريري.

ولا أدري كيف سمح الحريري لنفسه أن يقدم هذه الأموال الطائلة لمن ذكرنا بعض مناقبه في الصفحات القليلة الماضية؟! وأقل ما نقول عنه: (إنه مجرم منحط)... بل كيف سمح الحريري أن ينزله وبعض حاشيته في منزله في كل من باريس وسويسرا؟ وكيف قبل الحريري التهميش الكامل لأبناء طائفته -أهل السُّنة- ؟ ولا كيف رضي لنفسه أن يختزل لبنان: في الدروز والشيعة وأقلية من النصارى، استطاعت الأغلبية المطلقة من أبناء الطائفة من التخلص منهم، ورمت بهم في أحضان السوريين بدمشق.

يقول الحريري في مقابلته التي ذكر فيها روايته عن لقائه مع حبيقة:

(كان المهم عندي إنهاء الاقتتال والجلوس على طاولة الحوار).

وهذا منه كلام مؤسف، لأن الاتفاق الثلاثي بين بري وجنبلاط وحبيقة وثيقة دستورية تشبه اتفاق الطائف، يقول رئيس الجمهورية عام ١٩٨٦م مخاطباً حافظ الأسد وأركان نظامه:

(لقد استشرت في شأنه كبار الزعماء اللبنانيين وعدداً من رجال القانون ذوي الشهرة العالمية، فتبين لي أن هذا الاتفاق هو إعادة نظر كاملة في فلسفة النظام اللبناني القائمة...).

---

(١) توزع على كل مشارك بالحوار والقرار، وليس على الحرس والخدم، انظر كتاب (من إسرائيل إلى دمشق) لمؤلفه روبير حاتم، المرافق الخاص لإيلي حبيقة.

وأجابه الأسد:

(إنه اتفاق بين الشعبين اللبناني والسوري، فهو اتفاق شعبي، فغير الجيد الآن يصير غداً أو بعده، وهو ميثاق دستوري جديد يقوم على أساس الشرعية الثورية التي تلازم قادة الميليشيات الذين تفاوضوا على النص ووقعوه، وهم في رأيه -الأسد- يمثلون القوة الوحيدة الباقية على الساحة اللبنانية بعد أن سقطت جميع المؤسسات الدستورية نتيجة تفاقم الحرب، ومن المفروض إذاً أن يطبق هذا الاتفاق فوراً، ومن دون العودة إلى التقاليد والأنظمة المعمول بها في البلاد)[1].

والخلاصة:

- فقد جانب رفيق الحريري -غفر الله له- الحق في روايته:
- لأن بدء الاتصالات بين حبيقة وسورية لم تكن على يد الحريري، وليست بالتوقيت الذي ذكره.
- في لقاءاته مع حبيقة كان الحريري أحد أعضاء فريق يعمل لصالح النظام السوري، وبين أعضاء هذا الفريق من هو أكثر خبرة في شؤون لبنان من الحريري.
- المهمة التي نفذها هذا الفريق إقناع (إيلي حبيقة) بتدبير انقلاب عسكري ضد رئيس الجمهورية أمين الجميل، وقائد القوات اللبنانية (سمير جعجع)، وقد فعل.
- دور الحريري في هذا الفريق شراء ذمة -جعجع- من لا ذمة له، وإغرائه بالوفير من المال الذي كان يبذره على عشيقاته ونزواته.
- ليس صحيحاً قول الحريري: (إن الغرض من هذا الحوار، ومن الاتفاق الثلاثي وقف الاقتتال) فالاتفاق الثلاثي وثيقة دستورية تحدد شكل الحكم في لبنان وطبيعة العلاقة بين البلدين، بل هو انقلاب ثوري على الديمقراطية اللبنانية المشهورة، واختزال لبنان كله بالدروز والشيعة وقلة من النصارى.
- لقد أسقط النصارى الاتفاق الثلاثي، وتدخلت سورية بوسائلها المعروفة من

(١) كتاب «الرهان الكبير» لمؤلفه أمين بيار الجميل، دار النهار للنشر.

أجل إنقاذ عميلها من الموت، أما المسلمون السُّنة، فلم يدعوا إلى دراسة الوثيقة الدستورية، ولم تكن لهم أية قدرة على إسقاطها، وهذا ما ارتضاه الحريري لقومه، ودفع ماله من أجله.

ثالثاً: الحريري والمقاومة:

دعم الحريري المقاومة، ودافع عنها في مختلف المحافل، ومن إنجازاته في هذا الشأن إبرام تفاهم نيسان عام ١٩٩٧م على إثر عملية عناقيد الغضب التي ضربت فيه إسرائيل جنوبي لبنان، وكان هذا الاتفاق بمثابة اعتراف دولي بشرعية المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي، وقد شهد له بذلك خصومه، تحدث زعيم حزب الله (حسن نصر الله) عن الحريري بعد اغتياله، فكان مما قاله في خطبة له عن جريمة الاغتيال:

(إنه لا يمكن أن يكون حدثاً عابراً في تاريخ لبنان، ولا في تاريخ شعب لبنان، ولا في تاريخ المنطقة، إن ما حصل بالأمس يمكن وصفه بكارثة وطنية حقيقية، أدخل الحزن والأسى إلى قلوب كل اللبنانيين بلا استثناء، ويذكر تيار الحريري – المستقبل– كما يذكر أبناءه بأن الحريري كان دائماً رجل وحدة وإصلاح يقول الحريري: «كان يمكن أن يشكل فرصة كبيرة جداً لإعادة إنتاج تفاهم وطني أو توافق داخلي للخروج من الأزمة الحادة التي يعيشها لبنان الآن» هذا الموقع خسره لبنان، ولذلك نحن نتحدث عن خسارة وطنية، لا نتحدث عن خسارة للمعارضة، كما تقول المعارضة، أو خسارة للإخوة المسلمين السُّنة، كما يقول بعض إخواننا من المسلمين السُّنة، هو خسارة على كل صعيد، وبالتحديد هو خسارة وطنية حقيقية».

ويقول عن المقاومة: «في مسألة سلاح المقاومة قال: إذا عدت إلى رئاسة الحكومة أؤكد لك من موقع الاقتناع بأنه لا يمكن أن أوافق على نزع سلاح المقاومة، وسلاح المقاومة هي مسألة في حاجة إلى حوار وتفاهم وإجماع وطني، ولا يمكن الدخول فيها بلغة القوة والفرض والإجبار، وقبل يومين بالتحديد كان سعيداً عندما أرسل لي بواسطة أحد الأصدقاء المشتركين أنه بذل جهوداً كبيرة مع

أصدقائه الأوربيين لمنع وضع حزب الله على لائحة الإرهاب الأوربية في مقابل الجهود الإسرائيلية الحثيثة، كان متفائلاً جداً بأن مساعيه ستؤدي إلى نتائج طيبة).

وأشار نصر الله إلى أنه كان يلتقي الرئيس الحريري أسبوعياً، ولم نكن نعلن ذلك في الإعلام لمصالح عدة، وفي حضور أصدقاء مشتركين، كنا نلتقي في كل أسبوع مرة وأحياناً مرتين، وفي أماكن مختلفة).

وفي أوائل عام ١٩٩٨م عرضت حكومة إسرائيل على لبنان الانسحاب من جنوبي لبنان، فرفضت حكومة لبنان التي كان يرأسها رفيق الحريري هذا العرض لأنه كان مصحوباً بدعوى للتفاوض حول شروط الانسحاب، وقال الرئيس رفيق الحريري ما معناه:

(جئتم محتلين وتنسحبون مهزومين، لا تفاهم ولا تفاوض).

يقول أحد المقربين من الحريري:

(كان الرئيس رفيق الحريري في أحلى حالاته، وهو يعلن رفض العرض الإسرائيلي، يمكن القول إنه كان في لحظة من لحظات العمر، لحظة من تلك اللحظات التي يحلم بها كل إنسان في عنفوان شبابه، كان في حالة من الزهو والصفاء والفخر، ومن الثقة بالنفس، لأنه كان له دور في ذلك الإنجاز. هذا الموقف المبدئي، الاستراتيجي من المقاومة، هذا الالتزام الوطني والقومي الذي لم يتخل عنه الرئيس رفيق الحريري طول حياته، لم يحل دون تباينات في وجهات النظر).

ويتحدث حسن نصر الله عن موقف إنساني للحريري:

(تدخل شخصياً من أجل استرجاع جثمان الشهيد (الهادي بن حسن نصر الله) الذي قتلته القوات الإسرائيلية في ١٣/ ٩/ ١٩٩٧م وأضاف نصر الله أن الحريري دخل عليه في لحظة إنسانية عاطفية أدت إلى قيام علاقات وثيقة وحميمة بين الرجلين، وتكررت اللقاءات بينهما، وكادت تكون أسبوعية، ولم يكن الحريري يجد غضاضة في أن يذهب للقاء الأمين العام لحزب الله في المكان الذي يحدده

للأسباب الأمنية المعروفة)[١].

ولي على هذه النقول ملحوظتان:

الأولى: ليس مستغرباً على ابن صيدا وهو العربي السني، والذي يشهد تاريخ لبنان لآبائه وأجداده بمقارعة كل مستعمر دخيل يحاول تدنيس أرضهم واستباحة بيضتهم، هذا مع أن رفيق الحريري ما كان يجهل أمر المقاومة الفلسطينية التي تآمر عليها اليهود والنصارى والباطنيون وأخرجوها من لبنان كله: شماله وجنوبه، ولا كان يجهل المقاومة السنية اللبنانية التي روعت جيش العصابات الصهيونية بعد الاجتياح عام ١٩٨٢م، ولم يكن آيات طهران قد أعلنوا عن إنشاء حزب في لبنان اسمه حزب الله، والحريري بعد ذلك كله أذكى من أن يجهل الأبعاد المشبوهة للتحالف (النصيري - الشيعي)، واحتكارهم المقاومة ومنعهم شباب أهل السُّنة من تحقيق أمنيتهم في نيل الشهادة، والحريري رغم جميع الاعتبارات فقد كان متبنياً وداعماً للمقاومة.

الثانية: إذا كان رفيق الحريري خسارة وطنية حقيقية وأكبر داعم للمقاومة، وإذا كان يلتقي مع نصر الله كل أسبوع مرة أو مرتين، ويتدارس معه كل شيء، فلماذا حاربوه حياً، وكادوا له ومكروا به وتحالفوا ضده، وأغلقوا كل باب بوجهه؟! بل لماذا قتلوه؟! والقَتْل قد يكون بمعناه العام وقد يكون سياسياً.

عجباً من أمر هؤلاء الناس، إنهم -ومنذ أيام الحسين رضي الله عنه- يقتلون القتيل، ثم يمشون في جنازته باكين لاطمين، وقد أتقنوا هذه الصنعة، وجعلوا لها أياماً محددة كل عام، ولا يملون من ضرب الوجوه وإسالة الدماء، وشق الجيوب، فليكف أمين عام حزب الله عن هذه الأكاذيب، إن الحريري في مقياسهم ناصبي كافر -وإن أخلص لهم- ولا يمكن أن يبادلوا الناصبي المودة بمثلها مهما قدم لهم، وأخيراً إذا كانت هذه هي نهاية من أخلص لهم، فكيف هي نهاية غيره إذا تمكنوا منه.

---

(١) النهار، العدد تاريخ: ١٦/ ٢/ ٢٠٠٥، وكتاب الفضل شلق: تجربتي مع الحريري ص ٣٤٥ و٣٤٧.

سكوته على المظالم التي لحقت بأبناء طائفته

دخل رفيق الحريري الحياة السياسية في كل من سورية ولبنان عام ١٩٨٢م، وبين هذا العام وعام ٢٠٠٥م عصفت بأهل السُّنة في لبنان محن وكوارث اهتز لها العالم ويكفينا مثال على ذلك: المجزرة التي ارتكبها الموارنة -تحت حماية القوات الإسرائيلية- بمخيمي صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢م مما دعا رئيس الوزراء الإسرائيلي بيغن إلى الاستقالة أمام ضغط المجتمع الدولي، فما بالك قارئي الكريم بالمجازر التي ارتكبتها القوات الباطنية السورية وعملاؤها في لبنان.

كان الحريري طوال ربع قرن مقرباً من أصحاب القرار في كل من سورية ولبنان، ثم أصبح بعد اتفاقية الطائف من أصحاب القرار، وشكل عدة حكومات، فماذا فعل من أجل رفع الحيف الذي لحق بأهل السُّنة الذين اختاروه زعيماً لهم في انتخابات ومنافسات معروفة؟ وهل سمعه أحد أو نقلت له وكالات الأنباء بياناً يستنكر فيه المذابح التي ارتكبتها حركة أمل الشيعية بالمخيمات الفلسطينية أو بسكان بيروت الغربية أو بالاعتقالات العشوائية والإعدامات الظالمة، وغير ذلك كثير وكثير؟!

قد يعتذر له البعض زاعمين أنه لم يكن بمقدوره فعل أي شيء، وهذا غير صحيح، وهو لم يخش طغيان حافظ الأسد وجبروته عندما قال له:

(سيادة الرئيس: إذا وقع خلاف بينك وبين السعودية، فلن أكون حيادياً، وسوف أنحاز إلى الجانب السعودي لما لهم من أفضال عليّ).

وإذاً هناك أمر واحد لا يمكن أن يساوم الحريري حافظ الأسد عليه (السعودية) وما عدا هذا الأمر سيكون متعاوناً معه إلى أبعد الحدود.

فهل الخلاف السياسي بين السعودية وسورية أهم عند رفيق الحريري مما فعله تيمورلنك المحتل الجديد بسنة لبنان؟

إن صمت الحريري المطبق، وعدم استنكاره[١] للمظالم والجرائم التي لحقت بأبناء طائفته أكبر خدمة قدمها الحريري لنظام حافظ الأسد، وبكل أسف أقول: لم يكن الحريري في موقفه هذا وفياً لأهل بيروت الذين اختاروه زعيماً لمدينتهم، ومنحوه كامل ثقتهم وقدموه على زعماء الأسر السنية العريقة التي حكمت لبنان منذ عهد الاستقلال، كما أنه لم يكن وفياً للسنة في غير بيروت لأن أكثريتهم كانوا يختارون قائمته الانتخابية.

(١) كان أهل السُّنة يوجهون سهام نقدهم للحريري بسبب صمته وعدم الانتصار لهم ولكن اغتياله أنساهم أخطاءه، والحريري نفسه اعترف بما سماه تنازلات – كما سيأتي ذكره في الصفحات القادمة –.

ويبقى هو المتهم

تحدثنا فيما مضى من هذا البحث عن الأسباب التي دعت حافظ الأسد إلى اختيار رفيق الحريري لرئاسة وزراء لبنان، ونذكر أن من أهمها:

* لم يكن الحريري في أي مرحلة من سني عمره من حملة الاتجاهات الإسلامية التي يخشاها الباطنيون أشد الخشية، وإنما كان قومياً عربياً ناصرياً ثورياً في شبابه.

* لم يكن من أبناء الأسر الإقطاعية تتوارث السياسة كابراً عن كابر، إنه شاب عصامي كادح، ولا تختلف نشأته عن نشأة من هم في مثل سنه من البعثيين.

* كان ينأى بنفسه عن الطائفية، وجاءت أفعاله خلال العقد الذي سبق اختياره لرئاسة الوزراء مطابقة لأقواله وللشعارات التي كان يدعو إليها، كان يبني المساجد كما يبني الكنائس، ويبني المدارس العربية الإسلامية كما يبني المدارس التبشيرية الصليبية، ويوزع المنح الدراسية على جميع اللبنانيين لا يستثني طائفة دون طائفة أخرى... ويرمم مباني الجامعة الأمريكية كما يقدم مساعدات سخية للجامعة اليسوعية[1].

* نفذ مهمات كلفه بها طغاة دمشق وفي تنفيذها تهميش لأهل السُّنة، ومن المؤسف أنه رضي بذلك، ولم يستنكر أو يحتج على المذابح التي لحقت بالمخيمات وبأهل بيروت الغربية وبمدن أخرى من مدن لبنان.

* وإذا كانت تركيبة الحكم في لبنان تلزم طغاة دمشق اختيار رئيس وزراء من السُّنة، فليكن هذا الرئيس مقاولاً، يبني ما هدمته الحرب، ولا بأس بعد ذلك من

---

(١) لم نسمع أن الحريري استفتى علماء الأمة في جواز تقديم المساعدات للمدارس التبشيرية الصليبية، وعلى عكس ذلك فقد جاءه وفد من أهل صيدا يطلبون منه التوقف عن تقديم المساعدات لمدارس البعثات التبشيرية لأنهم ساعدوا اليهود أثناء الاجتياح فأبى.

تعاطيه بالسياسة، بعد الاختيار وجد الحريري نفسه محاطاً بحواجز لا يستطيع اختراقها مهما فعل.

ما هي هذه الاختراقات؟

يجيبنا عنها الحريري نفسه، ثم مستشاره الإعلامي، ولنبدأ بالأخير، ولا بد لنا من التعريف به أولاً، ثم نختار فقرات من أقواله.

شهادة نهاد المشنوق:

هو نهاد مشنوق أحد أقرب معاوني الرئيس الحريري ومستشاريه منذ ١٩٨٩م وحتى عام ١٩٩٨م، كان رفيقه في حله وترحاله، يفاوض باسمه، ويكتب خطبه ويبصره بمزالق قد لا ينتبه إليها بسبب كثرة مشاغله وتنوعها.

كانت السياسة المتبعة تجريد الحريري من معاونيه الذين يثق بهم، ولهم طرقهم المعروفة في هذا الشأن، فعندما أصدروا قرارهم بإبعاد المشنوق، قالوا للحريري:

(إن صاحبك متهم، وقد ضبطت له دوائر الأمن -دوائر كل من جميل السيد وريمون عازار- اتصالات له مع العدو الصهيوني!).

رفيق الحريري يعلم أن ابن بيروت السني لا يتعامل مع الصهاينة، وهم... هم الذين يتعاملون مع الصهاينة ومع الأبالسة، ولكنه لا يستطيع حماية أقرب الناس إليه من جحيمهم، وما عليه إلا أن يستجيب لطلبهم الذي يقضي بتغريب نهاد المشنوق، وقد فعل، ولم يعد المستشار إلى لبنان إلا بعد مغادرة الجيش السوري.

مختارات من أقوال المشنوق:

في مقابلة مع صحيفة الحياة الصادرة في لندن ١٢/ ٥/ ٢٠٠٥م قال:

ـ (في الحقيقة الرئيس الحريري والسوريون كانوا دائماً على خلاف، بعد ثلاثة أشهر من تكليفه عام ١٩٩٢م، بدأ الخلاف حول أمور سياسية وإدارية وتنظيمية في لبنان، نظرته للأمور وطريقة تعاطيه معها وعلاقته بالسياسيين المرتبطين بالنظام السوري أو بالأمن السوري، كان هناك مشكل دائم بينه وبين النظام السوري).

ـ (أنا مقتنع وسامع ومتابع إنهم ينظرون إليه نظرة تخوينية، ويعتقدون بأنه إحدى الأيدي الأمريكية في لبنان، ومع الوقت أصبح في رأيهم إحدى الأيادي الأمريكية في المنطقة، هذا الفريق في سورية على هذا المنوال منذ العام ١٩٩٢م، وهم تكرسوا بعد مجيء الرئيس الجديد، وانتصروا في لبنان عبر إميل لحود، كان الرئيس الحريري يشعر دائماً أنه موضوع من قبل المسؤولين الأمنيين السوريين في خانة التآمر، وهذه مشكلة لا حل لها).

ـ (دخل الرئيس الحريري إلى الحياة السياسية وكان يتوقع أن يجد اتفاق الطائف أمامه، فوجد أن ما يحكم البلد هو الاتفاق الثلاثي[1]، وليس اتفاق الطائف، وبدأ يتعاطى مع هذا الواقع بروح عملية، وليس برفض كامل).

ـ (كل رحلة ناجحة في الخارج تتبع بحملة وأزمة داخلية كبرى، إلى حد أنه وعندما نكون عائدين في الطائرة، صرنا دائماً نسأل في نوع المشكلة التي تنتظرنا في بيروت).

ـ يقول مشنوق عن اللقاء الذي جرى بين الحريري والرئيس الباطني بشار الأسد في كانون الأول ٢٠٠٣م:

(كان هذا الاجتماع أسوأ من الاجتماع الأخير بكثير، لأن الضباط المعنيين بالملف اللبناني حضروا هذا الاجتماع، أي اللواء غازي كنعان والعميد رستم غزالة، والعميد خلوف، كان هذا الاجتماع أسوأ اجتماع عقده الرئيس الحريري في حياته، حصل فيه جدال سيء وتخللته كلمات نابية، وكانت هناك مضبطة اتهام طويلة ووهمية، ومنها أن هناك مسؤولاً أمريكياً وصل من طريق مطار بيروت وقابله سراً من أجل التحضير لقرارات، وطبعاً كانوا يتكلمون عن مساعد وزير الخارجية الأمريكي الذي من المستحيل أن يصل إلى بيروت على هذا النحو، والأمر الثاني أنه عندما كان في عمان طلب من الملك عبد الله أن يتوسط مع الإسرائيليين لعدم إتمام مبادلة الأسرى في الوقت الذي كان فيه الرئيس الحريري يجري اجتماعات مكثفة مع

(١) الذي اختزل لبنان في الشيعة والدروز وأقلية من النصارى، وقد سبق الحديث عنه.

الأمين العام لحزب الله، وهو كان في عمان لمسألة تتعلق بمساهمته في البنك العربي، وثالثاً ورابعاً وخامساً... ومع ذلك صبر الرئيس الحريري، ولم يتحدث أبداً عن هذا الاجتماع، وانتظر الضباط حتى خرجوا وسألهم أين يمكننا أن نكمل حديثنا؟ فتوجهوا إلى منزل كنعان، وأصبح الكلام هادئاً أكثر... ولكن ما جرى كان قد جرى).

مقتطفات من أقوال الحريري:

- حوارات مع صحيفة الحياة اشترط الحريري عدم نشرها إلا بعد الحصول على موافقته ثم قضى أجله، يقول: (لم يتركوا وسيلة لتهشيم صورتي إلا ولجأوا إليها، قالوا للشيعة أنني جئت لتحجيم دورهم، أنا لن أرد أنت تعرف -غسان شربل محاور الحياة- السيد حسن نصر الله والرئيس نبيه بري لماذا لا تسألهما؟ قالوا للمسيحيين: أنني جئت لأسلمة البلد، لماذا لا تسأل البطريرك الماروني صفير عن رأيه، هل تصدق أنني أشعر بالحزن حين أقرأ عن ارتفاع معدلات الهجرة، خصوصاً في أوساط المسيحيين).

- ويسأله المحاور عن صلته بالقرار (١٥٥٩) لمجلس الأمن فيجيب: (ثمة من يريد تحميلي أخطاء ارتكبها، أنا أسألك هل يستطيع سياسي من دولة صغيرة استدراج مجلس الأمن، والدول الكبرى فيه خصوصاً إلى قرار من هذا النوع؟ حتى الدول الكبرى لا تستطيع تمرير هذا القرار إذا لم تكن هناك ظروف ومعطيات وأخطاء ولقاء مصالح).

وعما يقال إن شيراك لعب دوراً في صدور هذا القرار يقول: (وظفت صداقتي لشيراك لمساعدة سورية، المسؤولون السوريون يعرفون هذا الأمر، استفدت من العلاقة مع الرئيس شيراك لدعم اتفاق الطائف وفكرة إعادة الإعمار، وحق المقاومة في جنوب لبنان، فعلت ما هو أكثر من ذلك، سعيت إلى موقف فرنسي يتفهم ظروف لبنان الخاصة بما في ذلك انتشار قوات سورية على أرضه، ساهمت في تحسين العلاقة بين باريس ودمشق، لكن كل ما أنجزته في هذا المجال ضاع بسبب الأخطاء،

أسباب اللقاء بين فرنسا والولايات المتحدة حول الوضع في لبنان، بعد خلافهما حول العراق قصة طويلة تتناول ملفات عدة)[١].

ـ يشير إلى التقارير التي تقدم للنظام السوري ضده: (تقارير لبنانية سورية، تصور أن أحد التقارير على حد ما قيل لي، يزعم أنني أهيئ عبر الانتخابات انقلاباً على سورية... إلخ).

ـ وعن سبب عدم تفاهمه مع لحود: (مشروع لحود كان موجهاً ضد البرنامج الذي على أساسه توليت رئاسة الوزراء، جوهر هذا المشروع كان أمنياً ويقوم على التطابق الكامل، ولا يفسح أي مجال لشراكة لبنانية، ولو متواضعة مع سورية في إدارة الشأن اللبناني، ويضيف بأن جميل السيد ورستم غزالة لم يتركا مجالاً له لعقد لقاء ثنائي مع لحود، كانا مثل ظله).

ـ (يجب أن أقول لك إنهم لو عرفوا منذ البداية أن مشروع إعمار بيروت سيعيد لبنان إلى الخريطة الإقليمية والدولية لما وافقوا عليه، مؤشرات النجاح دفعتهم إلى إعداد مشروع مضاد هو مشروع لحود).

المحاور: من مهندس هذا المشروع؟

الحريري: صاحب الدور الأكبر اللواء جميل السيد، طبعاً السيد جزء من تركيبة، تصور أن لحود نفسه لم يستطع زحزحة مدير الأمن العام عن مكانه.

ـ (ببساطة أقول لك إنني خدمت المقاومة في جنوب لبنان أضعاف ما قدمه لحود لها، وخدمت سورية أضعاف ما خدمها لحود، لكنني أخدم سورية من موقعي كلبناني وعربي وبما أعتقد أنه يخدم مصلحة لبنان وسورية على المدى البعيد).

ـ رأينا فيما مضى أن الحريري قدم خدمات جلى للسوريين، وتنازل عن أمور مهمة على حساب لبنان، ثم على حساب أهل السُّنة، ها هو فيما يلي يبرر هذه التنازلات التي قدمها: (قدمت تنازلات في الداخل لأنني كنت أعتبر أن العلاقات

(١) يشير إلى أخطاء النظام السوري، وحمق رئيسه بشار الأسد.

بين الطوائف والقوى السياسية اللبنانية يجب أن تكون طبيعية، ولو استلزم الأمر تنازلات متبادلة أو تنازلات من طرف، هذا الأسلوب لم يكن مريحاً لبعض الناس، لا يريدون أن تكون علاقتي بالمسيحيين طبيعية أو قوية، الأمر نفسه بالنسبة إلى العلاقات مع الشيعة، قدمت أيضاً تنازلات في العلاقات مع سورية، كنت أحلم بأن يجيء وقت يحصن فيه الاستقرار اللبناني الاستقرار السوري، والازدهار اللبناني الازدهار السوري لتقوم علاقة طبيعية بين دولتين تربطهما روابط كثيرة، علاقة لا يعتبر فيها القرار اللبناني مشروع تهديد للعلاقة مع سورية أو مصدر قلق لها).

ـ وعن المرحلة المقبلة، أعني المرحلة التي تلت التمديد يقول: (إنها مرحلة تستلزم من الجميع الحكمة والصبر والتصبر، مرحلة صعبة، دعني اختصر لك موضوع التنازلات في تشبيه لا أعرف إن كان دقيقاً، أنت أمام طائرة مدنية مخطوفة ولا تستطيع تحرير الركاب بالقوة فماذا تفعل؟ جوابي هو: أن الألوية لسلامة الركاب وإنقاذهم، فبمجرد إنقاذ بيروت ولبنان يشكل عقاباً للخاطفين... إنها مرحلة تستلزم من الجميع الحكمة والصبر والتصبر).

وإذاً: فلقد كان رفيق الحريري مشبوهاً بل ومتهماً ومحاصراً منذ أول يوم تسلم فيه رئاسة الوزراء، وليس صحيحاً أن الشبهات صارت تحوم حوله عندما تسلم بشار الأسد الملف اللبناني أو عندما أصبح رئيساً للجمهورية بعد هلاك أبيه، والصحيح أن المتاعب التي كان يتعرض لها الحريري قد تضاعفت أيام رئاسة كل من لحود والأسد الابن.

ـ ليس من باب المصادفة أن يصعد نجم اللواء جميل السيد في الوقت الذي تقلد فيه الحريري منصب رئاسة الوزراء، وأن يكون مديراً للأمن العام، بعد أن كان هذا المنصب وقفاً على النصارى منذ استقلال لبنان.

ـ وليس من باب المصادفة أن يكون اللواء علي الحاج الضابط المرافق للرئيس الحريري، وأن يكون مكلفاً بحمايته الشخصية، ثم تبين للحريري أن الحاج كان ينقل للسوريين أدق التفاصيل عن لقاءاته وتحركاته، فاكتفى بنقله إلى وزارة الدفاع مع

ترفيعه إلى مرتبة لواء، وفي عهد وزارة عمر كرامي ووزير داخليته سليمان فرنجية قاما بتعيينه مديراً عاماً للأمن الداخلي، ثم ينشر تقرير أمني بريطاني يشير إلى احتمال تورط اللواء الحاج في مقتل الحريري لأنه كان يعرف عاداته وحركاته كما كان يعرف الترددات والذبذبات والموجات التي يستعملها أمنه وحراسه، وليس من باب المصادفة أن يكون الحاج معتقلاً من قبل لجنة التحقيق الدولية، ومن قبل القضاء اللبناني بهذه التهمة.

- وليس من باب المصادفة أن يكون الجهاز الأمني هو الذي يحكم لبنان، وأن تختار الدولة المحتلة قادة الجهاز الأمني اللبناني، وتمنحهم كافة الصلاحيات التي تمكنهم من ممارسة شتى أنواع الاستبداد، وأن يكون قرارهم هو النافذ، لقد حاول كل من رئيس الجمهورية إلياس الهراوي، وخلفه إميل لحود وكل من رئيس الوزراء سليم الحص ورفيق الحريري وغيرهم وغيرهم إبعاد جميل السيد لكنهم عجزوا **هذه واحدة.**

أما **الثانية**: فليس من باب المصادفة أن يكون قادة الأجهزة الأمنية جميعاً من الرافضة الباطنيين: فعلى الجانب السوري: اللواء محمد ناصيف المكلف بملف الشيعة في إيران ولبنان، اللواء محمد غانم، اللواء غازي كنعان. وعلى الجانب اللبناني: اللواء جميل السيد مدير الأمن العام، العميد غسان الطفيلي الذي كان مكلفاً بتتبع أسرار حاشية الحريري من خلال مراقبة مكالماتهم الهاتفية، ثم ممارسة الضغط عليهم للابتعاد عن الحريري أو فضح أسرارهم.

- وليس من باب المصادفة أن الحريري عندما يشكل وزارة كانوا يفرضون عليه الوزراء الذين يخالفون خطه، وإذا سمحوا له باختيار عدد من الوزراء فيشترطون عليه أن لا يكونوا من أبناء طائفته المنتمين لتيار المستقبل.

سأل محاور الحريري في جريدة الحياة ١١/ ٢/ ٢٠٠٦م: (هل صحيح أن وزراء حكوماتك المتعاقبة كانوا يدبجون التقارير، وينقلون أسرار مجلس الوزراء وحتى لقاءاتهم الشخصية معك؟

فأجاب: صحيح تقارير خطية وشفوية (يضحك) بينهم من تحسن خطه من كثرة ما كتب... وزراء ونواب وأمنيون..).

ونقل عنه صاحب جريدة السفير في عددها تاريخ ٣٠/ ١٢/ ١٩٩٧م قوله: (إنني أحكم بحكومة ثلثها أكفاء، وثلثها الثاني أغبياء، وثلثها الثالث لصوص)[١].

- وليس من باب المصادفة أن يفرضوا عليه أسماء في قائمته الانتخابية، كان من بينها ناصر قنديل الذي عرف فيما بعد بعداوته له، أما عمالته للنظام السوري فقد كانت معروفة.

- وليس من باب المصادفة أن يكون الحريري محاصراً في المجلس النيابي الذي يرأسه ثعلب ماكر اسمه (نبيه بري)، ويشكل الشيعة وأعوانهم ومرتزقة النظام المحتل الأكثرية فيه، وهذا فضلاً عن الحرب التي لا هوادة فيها من طرف رئيس الجمهورية، سواء كان هذا الرئيس إلياس الهراوي أو إميل لحود.

(١) عن كتاب تجربة الفضل شلق مع الحريري ص ٣٤٠.

الفصل الرابع

لماذا قُتل الحريري؟

* أقوال نهاد المشنوق.
* أقوال رضوان السيد.
* أقوال عبدالحليم خدام.

لماذا قتلوه؟![1]

رغم كل الخدمات الكبيرة التي قدمها الحريري للنظام المحتل في لبنان، ولحلفائه الشيعة ممثلين بحزب الله وحركة أمل... ورغم التنازلات الباهظة التي قدمها (الحريري) على حساب لبنان، ثم على حساب طائفته المستهدفة، ثم على حساب كرامته... رغم هذا وذاك فإن الأمور لم تمض وفق مخطط وحسابات أسد عند اختياره للحريري وذلك للأسباب التالية:

١- التفت طائفة أهل السُّنة حول الحريري، واختارته زعيماً لها، وهذا ما شهدت به نتائج الانتخابات النيابية منذ عام ١٩٩٦م، ولهذا فقد صارت كتلته من أكبر الكتل النيابية، وتشجع آخرون من النصارى والدروز على الانضمام إليها هروباً من التسلط النصيري الشيعي.

الحريري كان يؤكد دائماً أنه للبنان ولجميع الطوائف، وليس لطائفة دون طائفة أخرى، يقول نهاد المشنوق: (حقق الحريري في تلك الفترة انتشاراً كبيراً، وهو لم يكن يرغب كثيراً هذا الموقع، كان يتضايق كثيراً من انتشاره السني الذي لا حدود له،

---

(١) لسائل أن يسأل: كيف تُقرِّر بقتلهم له مع أن التحقيق لا يزال لم يكتمل، ولم يقل القائمون على لجنة التحقيق بهذا؟ وجواباً على ذلك أقول:

إنني ومنذ البداية، كنت أجزم بأن الحلف السوري الإيراني الشيعي (اللبناني) هم الذين قتلوا الحريري لأسباب كثيرة:

منها: هذا هو أسلوبهم في تصفية خصومهم أو تصفية من يخشونه، ولو صادقهم وتقرب إليهم، والتاريخ حافل بالشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة.

منها: عمد النظام المحتل منذ عام ١٩٧٦م وحتى كتابة هذه السطور إلى تصفية خصومه إما بالاغتيالات مثل كمال جنبلاط، وإما بالخطف ثم التعذيب والقتل مثل سليم اللوزي، أو بالتفجيرات مثل حسن خالد ورينيه معوض والحريري ومن معه.

ومنها: توتر العلاقات بينهم وبين الحريري في الأشهر التي سبقت اغتياله، بل ومنذ استلام بشار الأسد الملف اللبناني.

ومنها: مسار التحقيق واعتقال قادة الأمن اللبناني واتهام مسؤولين سوريين يسير في هذا الاتجاه.

وكان أقرب وزراء إليه: باسم السبع (شيعي) المقاتل الدائم، وغازي العريضي (درزي)، وفريد مكاري (نصراني) الأنيق الدائم، وثلاثتهم ليسوا من أهل السُّنة).

مساكين أهل السُّنة لقد أفقدهم النظام الباطني المحتل مرجعيتهم الدينية (المفتي حسن خالد) ومرجعيتهم السياسية (رؤساء الوزارات التاريخيين)، وأصبحوا كالأيتام على موائد اللئام، وفرحوا بالحريري، وغفروا له عدم تبنيه لقضاياهم الضرورية، وتجنب نصرتهم في أشد ساعات الضيق، ومع ذلك فقد كان يتضايق من انتصاره السني، وغيره لا يتضايق ولا يتبرم من التحدث باسم طائفته.

٢- كانت تتضاعف شهرته، ويزداد بروزه مع مرور الأيام... وقد رأينا في الصفحات الماضية تفانيه في خدمة أهل لبنان جميعاً من غير استثناء والدور البناء لمؤسسته الخيرية، وإعادته بناء ما هدمته الحرب، ففي تاريخ ٣/ ٧/ ١٩٩٧م منح ملك المغرب السابق الحسن الثاني رفيق الحريري وسام العرش، وقال في الحفل الذي أقامه بهذه المناسبة:

(الرئيس رفيق الحريري، باني لبنان والساهر على توازنه السياسي واليومي)[1].

وفي الإطار العربي كان يرتبط بصلات وثيقة مع المملكة العربية السعودية، وهو يعتبر أحد مواطنيها، ومن أهم المقربين عند ملكها السابق والحالي وأبناء الأسرة الحاكمة، كما أنه يرتبط بعلاقات متينة مع دول الخليج ومصر والأردن وسورية ودول المغرب العربي، وفي كثير من الدول العربية كانت له مشاريع استثمارية عملاقة تدعم اقتصاد هذه البلدان، وتساعد على حل مشكلة البطالة المزمنة... لهذا ولغيره فقد توثقت روابط الصداقة بينه وبين حكامها، وكان عندما يزورها يستقبل فيها على أعلى المستويات:

وفي الإطار العالمي: كانت أبواب فرنسا مشرعة أمامه، وكان رئيسها شيراك وفياً له في حياته ومماته، كما كان يرتبط بعلاقات مميزة مع بابا روما يزوره بين الحين والآخر، أما مكانته عند الأمريكان فقد كان الزعيم اللبناني الماروني (ريمون إده) بليغاً في وصفها:

---

(١) عبد الرحمن عبد المولى الصلح، جريدة النهار (٢٥/ ٢/ ٢٠٠٥).

(ظننت الحريري كلينتون لا العكس!! في إشارة للاهتمام الذي لقيه الراحل الكبير أثناء اجتماعه مع الرئيس الأمريكي)[١].

وكان هذا هو الاهتمام نفسه سواء كان رئيس أمريكا كلينتون الديمقراطي أو بوش الجمهوري.. وكذلك الحال مع ألمانيا وبريطانيا، ودول أمريكا الجنوبية وفي مقدمتها البرازيل حيث له فيها شركات تجارية ضخمة، ودول أفريقيا، أما الرئيس الباكستاني (مشرف) فلا ينسى فضل الحريري عليه، لأن السيارة المصفحة التي أهداها له كانت سبب نجاته من كمين خطير نصبه له خصومه.

الحريري كان أهم رئيس وزراء في تاريخ لبنان المعاصر، فقد كان رياض الصلح في نظر أهل الشام بطلاً من أبطال الاستقلال، وكانت له شهرة كبيرة، لكن الحريري تفوق عليه وعلى غيره من رؤساء الوزارات الذين سبقوه، وإذا كان حافظ أسد لم يكن قادراً على تحمل صائب سلام، أو تقي الدين الصلح، فكيف يتحمل هذا المقاول اللبناني المغترب الذي أصبح أهم وأكثر شهرة منه ومن ابنه من بعده؟! وكيف يتحمل هو وابنه وشيعة لبنان من صار يتوسط لهم هنا وهناك، ولو كانت هذه الوساطات لمصلحتهم؟!

مما طبع عليه المستبد الشك بكل من يتعامل معهم، وإذا أحس بأن الخطر سيأتيه من جهة أخيه أو أبيه أو ابنه لا يتوانى في البطش به أو بهم... فكيف إذا شعر بأن الخطر سيأتيه من جهة هي عنده دائماً موضع شك؟

لا يحتمل الباطنيون في كل من سورية ولبنان أن يختزل لبنان بشخص الحريري، فإذا ذكر الغربيون رفيق الحريري قالوا: (مستر لبنان)، وهذا السبب وحده كاف لاغتياله في نظر هؤلاء.

٣- لم يكن الحريري يخفي رغبته في خروج القوات السورية من لبنان، وأن تقوم علاقات مميزة ما بين الدولتين، ويستغرب عدم تنفيذ سورية لاتفاقية الطائف

(١) مقابلة أجراها مارسيل غانم مع العميد ريمون إده، وبثت على شاشة الـ «LBC» في ٦/ ٩/ ١٩٩٦ عن صحيفة النهار تاريخ ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٥م.

رغم وضوحها، سورية وحلفاؤها الشيعة كانوا يتطلعون لوحدة اندماجية بين الدولتين، بل وكان النظام السوري يتبنى مشروع سورية الكبرى، وهذا هو سر دعمه للحزب السوري القومي، وعلى هذا الأساس فإن خروج القوات السورية لم يكن وارداً في نظر المحتلين.

كان الحريري معارضاً، لكنه ما كان يتجاوز الخط الأحمر، وحتى اللحظات الأخيرة التي سبقت موته بدقائق كان يرى أن خطه يخالف خط المعارضين المتشنجين، ويدعو إلى الحوار الهادئ وتجنب الاستفزازات وسياسة توتير الأجواء بين البلدين، وكان يقابل إهانات المحتلين بالصبر والتجلد... وهذا الذي يخيف أعداءه ويرعبهم، وما كانوا يخشون من صريخ وليد جنبلاط وأمثاله.

إن سبباً واحداً من هذه الأسباب كافٍ لفقدان الود بين الحريري وبين الذين اختاروه لرئاسة الوزارة، ثم للبدء بالتخطيط للتخلص منه في عهد رئيس شاب أحمق تحيط به مجموعة من الباطنيين والانتهازيين لها أهدافها المعروفة، كما وأن لها باعها الطويل في القَتْل والاغتيالات، وهذا الذي حدث، والله أعلم.

إنني -ولله الحمد والمنة- لم أنفرد بالنتائج التي انتهيت إليها في هذا البحث، ويكفيني لو أردت بيان المجلس الإسلامي السني الموسع، الذي جاء فيه[1]:

(إن قتل الرئيس الحريري يستهدف المسلمين السُّنة في لبنان، وهم يعلنون أنهم قد نالهم من الضيم ما يكفي، ومن الصبر ما لم يعد يحتمل).

وقد وقع على هذا البيان مفتي الجمهورية الشيخ محمد رشيد القباني، ومفتو المناطق، ورئيس وقضاة المحاكم الشرعية السنية العليا، وعدد كبير من العلماء والوزراء ورؤساء الوزارات السابقين، وإضافة إلى هذه الوثيقة القيمة نستدل فيما يلي بأقوال: نهاد المشنوق ورضوان السيد وعبدالحليم خدام، وليس بينهم من هو متهم بالطائفية، وعلى نقيض ذلك فمنهم من هو علماني.

وفيما يلي أسماؤهم وأقوالهم:

(١) مر ذكر هذا البيان مع التعليق عليه في كتابي هذا.

١- أقوال نهاد المشنوق

(ما الذي دفعك للاعتقاد بأن اغتيال الحريري هو استهداف لشخصية سنية أولاً؟

ـ أعتقد أنه منذ ٢٥ إلى ٣٠ سنة، السُّنة في لبنان مستهدفون، وعندما تعود إلى التاريخ صار –عملياً– مقتول خمسة رؤساء حكومات سنة، أولاً: رياض الصلح، إلى صائب سلام الذي نفي سنوات طويلة، وعاد وتوفي في بيروت، إلى تقي الدين الصلح الذي غادر مرغماً بيروت وتوفي في باريس، إلى رشيد كرامي الذي اغتيل في الطائرة وصولاً إلى رفيق الحريري، وقتل أيضاً زعيم سني كبير هو المفتي حسن خالد.

السُّنة يعانون من مشكلة عربية، ففي الوقت الذي يعتقدون بأنهم هم عروبة لبنان، في الوقت نفسه أي خلاف عربي يقع عليهم، بعد مقتل الحريري امتصهم السعوديون والمصريون وبعد جهود الأمير (الملك الحالي) عبدالله بن عبدالعزيز والرئيس حسني مبارك، بدا أن هناك احتضاناً لمصابهم، ولكن المطلوب هو استمرار هذا الاحتضان، السُّنة في لبنان هم أهل اعتدال في السياسة، هذه الحال السُّنِّيَّة المسالمة والمعتدلة لم تتمكن من أن توجد نسيجاً من الحماية الطبيعية مع أي وضع عربي، علماً بأن السعوديين لعبوا دوراً كبيراً في هذا السياق، ولكن المطلوب يتعدى الاحتضان حتى على مستوى المؤسسات، فمؤسسة المقاصد وضعها المالي حالياً يرثى له، ولا من يهتم.

فبعد وفاة صائب سلام تدهورت الأمور في المؤسسة، وغيرها من المؤسسات التعليمية والاجتماعية، لا أعتقد بأن عائلة الحريري وسعد الدين الحريري سيتخلون عن هذه المهمة، ولكن قدرة الأشخاص لا يمكن أن تكون منتظمة وملتزمة بالطريقة نفسها التي يمكن أن تقوم بها دول لرعاية هذه المؤسسات الحاضنة للاعتدال والمنتجة لمسلمين معتدلين في كل المجالات)[1].

(١) مقابلة أجرتها صحيفة الحياة معه بتاريخ (١٢/ ٥/ ٢٠٠٥ م).

٢- الحريري والسُّنة والمستقبل

د/ رضوان السيد

ما استطاع اللبنانيون بعد، والمسلمون من بينهم على الخصوص، الإفاقة من هول اغتيال الحريري في وعيهم ولا في تصرفاتهم. فعلوا كل ما بوسعهم لجعل ذاك الحدث غير عادي وغير طبيعي، ساروا جميعاً في جنازته، دفنوه بجوار الجامع وسط أكبر ساحة في بيروت عاصمة لبنان. حولوا قبره إلى مزار تنثر عليه الزهور كل يوم، وتضاء من حوله الشموع، ويصلي عليه الشيوخ والشبان، والسافرات والمخدرات. وتظاهروا حاملين صور قتلاهم الطائفيين، وضحايا حروبهم المتكاثرة؛ كأنما يطمح كل منهم أن يحول قتيله إلى «شهيد» بمجرد تقريب صورته من صورة الحريري.

وترافق ذلك كله مع لعن لا يتوقف لنظام الحكم في سوريا؛ لا يهم إن أثبتت ذلك التحقيقات النزيهة والشفافة التي يطالبون بها أو لم تثبت، فكل الناس يعرفون أن الحريري عانى منذ الثمانينيات من شكوك المسؤولين السوريين به، ومن إقبالهم على ابتزازه مادياً وسياسياً وإنسانياً، وصحيح أن نصف الذين يطالبون بتطبيق الطائف الآن كانوا ضده، لكنهم لا يرون في أعماقهم سبيلاً لإخراج السوريين من لبنان إلا الطائف الآن، والواقع أن سائر الفرقاء تجاهلوا دستور الطائف في فترة من الفترات؛ تجاهله السوريون أولاً عندما جددت لهم الولايات المتحدة التكليف والغطاء بعد مشاركتهم لها في الحرب على العراق بعد احتلال الكويت.

الطائف يطلب منهم الخروج إلى منطقة البقاع بعد أول انتخابات، وأول حكومة عام ١٩٩٢ م، وهم لم يخرجوا حتى الآن، وتجاهل المسيحيون من حول البطريرك الطائف بعد سجن سمير جعجع، واعتبار البطريرك أن القوى السياسية المسيحية جرى تجاهلها لصالح مسيحيين هامشيين في أكثرهم. قال البطريرك: أولاً إن الطائف أسيء تطبيقه أو أنه لم يطبق، وصولاً إلى القول بسقوطه. وذهب الشيعة الحلفاء

الاستراتيجيون لسوريا، إلى تجاهل الطائف، لأنه لا يعطيهم من الامتيازات ما استطاعوا انتزاعه بمساعدة السوريين، وبابتزاز الحريري. وما اهتم السُّنة والدروز كثيراً لعدم تطبيق الطائف لاكتفائهم بالحريري، وبما كسبوا من ضخامة حجمه.

إنما سر الأسرار يكمن في أسباب تسليم الحريري بهذه الغلبة السورية؛ وبالأجهزة الأمنية التابعة لهم في لبنان، وعلى الأخص للرئيس لحود الذي تجاهل الدستور، وعطل مجلس الوزراء، واخترق بالأمن وبالعسكر وبالقضاء غير النزيه المؤسسات والحُـرُمات. كان الحريري يأمل أنه بالنهوض اللبناني والاحتضان العربي والدولي؛ يمكن الوصول إلى نظام ديمقراطي في الداخل، وعلاقات ندية مع سوريا: فهل كان رهانه خاطئاً؟!

تركز نشاط الحريري الإنقاذي والإعماري والاجتماعي والخيري في بيروت وصيدا وطرابلس في السنوات العشر الأولى من اهتمامه بالساحة اللبنانية، وهذه المدن هي مواطن الأكثرية السنية، التي تخربت بالاقتتال فيها وعليها في الحرب الأهلية، من جانب الطوائف والأقليات الأخرى، ومن جانب الاجتياح الإسرائيلي في العام ١٩٧٨م وفي العام ١٩٨٢م، وما ابتلي السنيون بأطراف الحرب الأهلية وبالإسرائيليين فقط؛ بل ابتلوا أيضاً بالدخول السوري إلى لبنان.

فقد اصطدم السوريون بالفلسطينيين وبالحركة الوطنية واستطاعوا حتى أواسط الثمانينيات، الانتهاء من الطرفين بخروج الفلسطينيين من لبنان بعد معارك مع الإسرائيليين ومع السوريين في بيروت وصيدا وطرابلس، أما الحركة الوطنية فقد تشرذمت بإخراج الفلسطينيين، وبقتل كمال جنبلاط زعيمها إلى جانب ياسر عرفات، وفي أثناء ذلك تفرغ السوريون وتفرغت أجهزتهم للإجهاز على القوى السنية الحية: تارة لأنهم رجعيون (صائب سلام وتقي الدين الصلح والمفتي حسن خالد)، أو لأنهم عرفاتيون (سائر القوميين العرب وتقليديو السُّنة من أنصار جمال عبد الناصر سابقاً، والثورة الفلسطينية لاحقاً).

وجاء الحريري والسُّنة في خراب في كل لبنان فجدد بناءهم الاجتماعي،

وأرسل أولادهم للمدارس والجامعات من جديد، ورمم وجودهم في الحياة المصرفية والأعمال، والأهم من ذلك أوقف بعلاقاته الجديدة والمتنامية مع السوريين الحملة السورية عليهم، وشارك باسمهم في سائر الشؤون وعلى رأسها الطائف؛ فصان بذلك وجودهم السياسي المتنامي أيضاً، والسُّنة تقليدياً هم الامتداد العربي في لبنان، أو أنهم وجهه العربي، هكذا نظر إليهم العرب دائماً، وهكذا كان إيمانهم هم.

وفي العام ١٩١٨م أعلنوا حكومة عربية في بيروت بعد خروج الأتراك، وأعلنوا تبعيتهم لدولة الملك فيصل الأول في سوريا، وفي الثلاثينيات اتفقوا في الساحل أي في صيدا وطرابلس وبيروت على النضال من أجل تحرير بلادهم من فرنسا والعودة للتوحد مع سوريا العربية (مسألة الأقضية الأربعة التي ضمها الفرنسيون إلى لبنان الكبير) وانزعجوا أشد الانزعاج عندما جاءت الحركة الوطنية السورية فاتفقت مع البطريرك الماروني دون مشاورتهم لفصل النضالين، وفصل الحركتين الوطنيتين، وإقامة الدولتين عملياً.

وفي الخمسينيات شكلوا جبهة لمقاتلة حلف بغداد في الداخل اللبناني ومناصرة جمال عبد الناصر ضد الحلف، وضد حرب السويس، وأسلموا قيادهم للناصرية حتى كان سفير مصر عبد الحميد غالب يقيم حكومات ويسقطها في الستينيات، وعندما انهزمت مصر عام ١٩٦٧م وضعفت زعامتها العربية، سارعوا للانضواء تحت عروبة أخرى هي العروبة الفلسطينية، واندلع النزاع اللبناني لوقوف المسلمين مع الفلسطينيين في وجه الهجمة ضدهم من جانب إسرائيل وأنصارها من حزب الكتائب. وما كاد السنيون يخرجون من كابوس الغزو الإسرائيلي والخروج الفلسطيني من لبنان، حتى دخلوا في الاستنزاف السوري، وتسليط الشيعة والدروز على بيروت، إلى أن ظهر رفيق الحريري، بالمواصفات وبالأعمال السالفة الذكر.

في الثمانينيات أوقف النزيف، وفي التسعينيات أطلق في بيروت حركة الإعمار والنهوض الاقتصادي والمالي، بحيث صارت مدينة العرب والشرق الأوسط:

فكيف لا يقدسه السُّنة ويحبه اللبنانيون؟! يصل سكان بيروت إلى حوالي المليون ونصف المليون، ولكن الذين ينتخبون أو يصوتون في بيروت لا يزيدون على نصف المليون، ومنهم ٣٥٠ ألف سني، وقد عرف لبنان رؤساء سنيين للحكومة من غير بيروت، مثل عبد الحميد كرامي، وابنه رشيد كرامي، وابنه الآخر عمر كرامي، من طرابلس لكن بيروت باعتبارها العاصمة، والأكثرية سنية، يضطر كل الطامحين لرئاسة الوزارة للانتقال إليها وأحياناً نقل صوتهم أو تسجيلهم كما فعل رئيس وزراء لبنان الأول في الاستقلال: رياض الصلح الصيداوي، ورئيس الوزراء قبل الأخير، والصيداوي هو الآخر: رفيق الحريري؛ وهما أهم رئيسي حكومة عرفهما لبنان منذ الأربعينيات من القرن العشرين.

وكلا الرجلين كان قومياً عربياً، وكلا الرجلين كانت له علاقاته العربية العميقة والشامخة، والمشتركات بينهما كثيرة كما الفروق، رياض الصلح ورث الزعامة كابراً عن كابر، بينما صنع الحريري ابن الأسرة الفقيرة نفسه بنفسه، ورياض الصلح كان يستطيع تولي الوزارة في لبنان وسوريا والأردن والعراق، لوثاقة صلاته بالحركة العربية من حول الهاشميين، وهو قتل بسبب الصراع بين المحور الهاشمي والمحور (المصري-السعودي)، واعتقاد الأخيرين أنه متحزب لصالح الهاشميين، وضاع آل الصلح بعدها لصعود مصر ثم سوريا في لبنان.

قتل الحريري لضخامة شخصيته العربية والدولية، ولبروز قوته أضعاف ما بلغه رياض الصلح، وطورد صائب سلام من جانب السوريين فهاجر من لبنان لعشر سنوات، وما عاد إلا بعد أن بلغ التسعين، وبسبب تواري الزعامة السياسية السنية مع غروب الفلسطينيين وصعود النفوذ السوري، برز المفتي الشيخ حسن خالد زعيماً دينياً وسياسياً للسنة، فقتل أيضاً عام ١٩٨٨م، وكان رشيد كرامي قد قتل وهو رئيس للوزراء عام ١٩٨٧م، وهذه المرة على أيدي القوات اللبنانية، وقد حاولوا اغتيال الرئيس سليم الحص أيضاً.

وهكذا فرؤساء الحكومات السُّنة يقتلون أو يطاردون إذا ضعفت العروبة في

لبنان أو سيطر طرف عربي فيه، وأراد منع الآخرين من التدخل، أو منع رئيس الوزراء اللبناني من تشكيل زعامة منفصلة عنه، لقد لقى السنيون ضربة قاسية في لبنان باغتيال الحريري، بعد الضربة القاصمة التي أصابتهم بالعراق، بيد أن شمولية الحريري، حولت اغتياله إلى مسألة وطنية، وربما كان في ذلك نوع من الإنقاذ لوجود السُّنة ودورهم باعتبارهم شركاء رئيسيين في التوازن الداخلي، لكن ما لم تبرز لهم قيادة، ويعود العرب في مصر والسعودية والخليج إلى العناية بهم، فإن التحديات ستتناوشهم من كل جانب[١].

(١) الاتحاد (١١/ ٣/ ٢٠٠٥م)، عن كتاب: الرئيس الشهيد رفيق الحريري، الدار العربية للعلوم.

٣- أقوال عبد الحليم خدام[١]

في مقابلة أجراها نائب رئيس الجمهورية السورية عبد الحليم خدام مع فضائية العربية تحدث فيها عن أمور كثيرة مهمة كان هو شاهداً عليها، ومما قاله عن قضية الحريري مع النظام السوري: (في لقاء فريد من نوعه للحريري مع بشار الأسد، قال الأخير مخاطباً الأول: أنت تريد أن تأتي برئيس لبنان...أنت تريد كذا... أنا لا أسمح لك سأسحق من يحاول أن يخرج عن قرارنا... كان ذلك بحضور ضباط صغار... فخرج الرئيس الحريري بعد أن ارتفع ضغطه، وبدا معه نزيف في الأنف، أخذه غازي كنعان إلى مكتبه، وحاول أن يهدئ الموضوع).

ويضيف خدام: (وفي القيادة في إحدى المرات، كان يجري الحديث حول القرار (١٥٥٩) وجرت حملة على الرئيس الحريري بأنه يقوم بعمل غير مسبوق بلبنان، وهو تجميع طائفته حوله، وهذا ضد سورية و... و... اتصلتُ -ولا يزال الحديث لخدام- بعد ذلك بالرئيس وقلت له: لماذا هذا الحديث في القيادة؟ هذا الكلام سينتقل... الوضع السياسي في لبنان[٢] قائم على الطوائف... طيب رفيق الحريري تجمعت طائفته حوله، نبيه بري شو؟ حركة أمل حركة شيعية حزب الله حزب شيعي... المردة (سليمان فرنجية) حركة مارونية... القوات اللبنانية (سمير جعجع) حركة مارونية... مسيحية...طيب لماذا رفيق الحريري خطر على سورية إذا تجمعت طائفته حوله، وحسن نصر الله ونبيه بري لا يشكلون خطراً إذا تجمعت طائفتهم حولهم؟... وبعد ذلك جاءني محسن دلول وطلبت إليه إبلاغ المرحوم (أبو بهاء) أن يغادر لبنان لأن وضعه معقد في سورية).

---

(١) زميل حافظ الأسد منذ أيام الدراسة في المرحلة الثانوية، وبعثي قديم، ونائب رئيس الجمهورية في عهدي حافظ وابنه بشار، انشق عن النظام والتجأ إلى فرنسا حيث يعيش فيها حتى كتابة هذه السطور.

(٢) آه يا خدام: الوضع السياسي في لبنان قائم على الطوائف، والنظام الذي خدمته في سورية أربعين عاماً ونيفاً قائم على ماذا؟ متى يستيقظ ضميرك؟

وقصارى القول:

- لقد اكتفيت بهذه الشهادات التي تعزز النتائج التي انتهيت إليها في هذا البحث، ونقلتها كما هي دون أي تدخل مني.

- رئيس النظام الباطني في دمشق أراد ذات مرة تبديد ما عند الناس في كل من سورية ولبنان من قناعات حول استهداف نظامه لأهل السُّنة، فتحدث في تصريح له عن مآثر أهل السُّنة الطيبة في لبنان، وتاريخهم الوطني الناصع، فكان التصريح - بحد ذاته- فضيحة له ولنظامه، وأهل السُّنة ليسوا بحاجة إلى شهادة هذا الباطني الموتور.

- إن قصة الحريري منذ بدايتها وحتى نهايتها عبرة لكل من يظن أنه قادر على كسب مودة هؤلاء الشعوبيين الباطنيين، ولو تنازل عن أمور كثيرة وخطيرة، وقدم لهم خدمات جلى، ومنها استهدافهم لقومه وطائفته... إنه لن يكسب مودتهم، ويأمن شرهم حتى لو خرج من جلده، فهل يتعظ كل من يغرد خارج سربه؟!

الفصل الخامس

* قصة اغتيال المفتي.
* رواية سعد الدين خالد.
* ما أرخص دماءنا.

قصة اغتيال المفتي[١]

تحدثنا فيما مضى من كتابنا هذا عن جريمة اغتيال مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد -رحمه الله-، ونتحدث فيما يلي عن رواية عائلة الشيخ عن معاناته وعن التضييق الشديد عليه قبل تنفيذ الجريمة، وقبل عرض الرواية لا بد لنا من تسجيل الملحوظات التالية:

---

(١) هو الشيخ حسن بن سعد الدين خالد، ولد في بيروت سنة ١٣٤٠ هـ الموافق ١٩٢١ م، بدأ علومه الأولى في مدرسة عمر الفاروق التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، بعد حصوله على شهادة الدروس الابتدائية التحق بالكلية الشرعية في بيروت، أزهر لبنان حالياً، وبقي فيها إلى أن تخرج منها سنة ١٣٥٩ هـ الموافق ١٩٤٠م.

بعد تخرجه من الكلية المذكورة كلفته المديرية العامة للأوقاف الإسلامية بوظيفة خطيب في بعض مساجد بيروت، ثم أرسله مفتي الجمهورية اللبنانية مع بعض زملائه إلى الجامع الأزهر في مصر لمتابعة تخصصه العالي في العلوم الشرعية، فالتحق بكلية أصول الدين التي بقي فيها إلى أن تخرج منها حاملاً شهادتها النهائية في سنة ١٣٦٦ هـ الموافق ١٩٤٦ م، على إثر عودته إلى بيروت عين كاتباً في المحكمة الشرعية في بيروت ثم ترقى إلى درجة رئيس قلم، ثم عين قاضياً في محكمة عكار الشرعية، ومنها إلى محكمة شحيم، في أثناء عمله في المحاكم الشرعية كان يمارس التدريس في أزهر لبنان، وإلقاء خطبة الجمعة في بعض مساجد بيروت.

وعندما استعفي الشيخ محمد علايا من منصب الإفتاء بسبب الشيخوخة، انتخب الشيخ حسن خالد بالإجماع من قبل الهيئة الناخبة مفتياً للجمهورية اللبنانية.

كان الشيخ -رحمه الله- واسع العلم والمعرفة وله كتابان أحدهما بالمواريث والآخر في موضوع الأحوال الشخصية عند المسلمين شاركه في تأليف هذين الكتابين المحامي عدنان نجا، وله كتب أخرى في الآراء التي رآها صالحة لمعالجة المشكلات المطروحة على الساحة الإسلامية والوطنية سواء في داخل لبنان أو في خارجه، كما وله علاقات وثيقة بالمنظمات الإسلامية العالمية، وعين عضواً مؤسساً لعدد منها، مثل رابطة العالم الإسلامي والمجلس الأعلى العالمي للمساجد اللذين لهما مقر دائم في مكة المكرمة.

هذا وقد استشهد -نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً- الشيخ حسن خالد يوم الثلاثاء في ١١/ ١٠/ ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩/ ٥/ ١٩٨٩م وقد تم دفنه بمقبرة الأوزاعي في اليوم التالي لوفاته -رحمه الله رحمة واسعة-.

أولاً: كان الشيخ متواضعاً عفيف النفس، متمسكاً بتعاليم دينه الحنيف، يكره النفاق والمداهنة، ويقول الحق، ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة، وبهذه الأخلاق التي يتصف بها كان يتعامل مع النظام السوري، ويحتفظ بعلاقات طيبة معهم، ويؤيد تدخلهم في لبنان، ولم تتغير هذه القناعات إلا بعد الاجتياح الإسرائيلي واحتلال بيروت الغربية من قبل الشيعة والدروز والنظام السوري... ومع ذلك كان ينصح ويصبر ويحاول أن لا يستعدي جيش الغزاة الباطني.

ثانياً: إذا كان رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأسبق موسى الصدر هو الذي أسس حركة أمل وجناحها العسكري، وهو صاحب شعار: (السلاح زينة الرجال)... وإذا كان بعض ميليشيات النصارى يتزعمها قسس ورهبان، فإن الشيخ حسن خالد كان يعتقد بأن هذه الميليشيات هي التي أهلكت الحرث والنسل، ويدعو إلى حلها.

وإذاً فقد كان الرجل مسالماً، حريصاً على وحدة لبنان، داعياً إلى خروج القوات السورية من أجل أن لا تضطرب الأمور بين البلدين وأن لا تتحول قوات المساعدة والإنقاذ إلى قوات احتلال.

ثالثاً: وردت في رواية ابن الشيخ سعد الدين خالد عبارات تمثل وجهة نظره ووجهة نظر رئيس الشراع حسن صبرا -الذي أجرى المقابلة الصحفية معه- ولا تمثل مواقف الشيخ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تجاوزت بعض فقرات المقابلة لأنها ليس لها صلة بموضوع بحثنا.

رواية سعد الدين خالد

حسن صبرا: اليوم الذكرى الثالثة عشرة لاستشهاد المفتي الشهيد حسن خالد، هل كان المفتي الشهيد في حالة حذر من عملية اغتيال تطاله، وهل من تهديدات تلقاها؟ ممن؟ وما كان يقول عنها؟

سعد الدين: حتى نتكلم عن هذا الموضوع، يجب أن نعرف شخصية المفتي الشهيد حسن خالد، وما هي الأمور التي حكمت هذه الشخصية، لقد حكمت شخصيته ثلاثة أمور:

الأمر الأول: إيمانه المطلق بالله سبحانه وتعالى، وبالقضاء والقدر.

ثانياً: تربيته الإسلامية والعربية المحافظة جداً.

ثالثاً: دراسته لعلم المنطق والتوحيد التي تركت أثراً على مناحي تفكيره وطريقة عمله وأسلوبه في الاستماع وقدرته على الحوار.

فهذه الأمور حكمت شخصيته في كل عمل كان يقوم به خلال توليه منصب الإفتاء وخلال عمله منذ تولى مناصب عدة في القضاء وغيره، من هنا نستطيع القول، أن المفتي خالد -رحمه الله- كان على علم بأن هناك محاولات كثيرة لاغتياله.

كان الشيخ الشهيد يعيش التهديدات بالقَتْل من خلال مراسلات ومن خلال اتصالات عبر الهاتف، كتهديدات مبطنة ومن خلال أشخاص كانوا يوفدون إليه وكان يستمع إليهم بكل هدوء وإصغاء إيماناً منه بالله تعالى، أنه لن يغير موقفه مهما كلف الثمن، لأن هذا الموقف ليس موقف حسن خالد وإنما هو موقف يشعر من خلاله مع اللبنانيين مع ديمومة لبنان ومع الحفاظ على الحق والعدالة والمساواة والمحافظة على البلد والمفاهيم التي تكلمنا عنها.

حسن صبرا: ممن كانت تأتيه هذه التهديدات؟

سعد الدين: كانت تأتيه بواسطة أشخاص من بعض أجهزة المخابرات السورية واللبنانية: منها (رأفة بك يا شيخ حسن غير وبدل من مواقفك)... (هذه الأمور عدل وغير فيها)... وكان رده الدائم: (إن هذا الموقف ليس ملكاً لي وإنما هو ملك الله تعالى وأنا مسؤول في هذا المنصب، ولا أستطيع أن أغير شيئاً من قول كلمة الحق، إذا أخطأت فأنا مستعد للرجوع عن الخطأ إنما فيما يخص الحق والعدل، فهذا لا يخصني وإنما يخص الناس، ويخص بالنهاية موقفي وموقعي كمسؤول عن الناس).

حسن صبرا: أجهزة المخابرات السورية كانت يومها برئاسة اللواء غازي كنعان... هل كانت تأتيه التهديدات بواسطة اللواء كنعان؟

سعد الدين: لم تكن تهديدات، نصائح، هذه النصائح كانت تدور حول (لماذا تأخذ هذا الموقف)... (لماذا لا تتعلم من كذا)... وكذا...

حسن صبرا: ممن؟

سعد الدين: من كمال جنبلاط وممن سبقوك بالعمل السياسي...من هؤلاء المتشددين...وكانوا يقولون له، تستطيع أن تصل إلى ما تريد من خلال كونك رحوماً، أن تخفف وطأة هذا العمل.

حسن صبرا: من كان ينقل له هذه الرسائل هل كانوا لبنانيين؟

سعد الدين: الكثير منهم كان من اللبنانيين، والبعض كان حريصاً ومحباً، ويوصل له الكلام الذي سمعه.

حسن صبرا: مثل من؟

سعد الدين: الكثير من الشخصيات اللبنانية في المخابرات، وبعضهم أشخاص عاديون، كانوا على علاقة مع الأجهزة السورية.

حسن صبرا: هل كانوا ينقلون كلاماً مباشراً من اللواء كنعان بأن يكون حذراً؟

سعد الدين: كانوا ينقلون كلاماً مباشراً من اللواء كنعان، وكلاماً عبر القنوات

السورية من الرئيس حافظ الأسد ومن الوزير السوري عبد الحليم خدام.

حسن صبرا: رسائل من الرئيس الأسد ومن نائبه؟

سعد الدين: نعم.

حسن صبرا: واعتبرت نوعاً من التهديد.

سعد الدين: وفي بعض اللقاءات التي حصلت بينه وبينهم، كان يسمع بعض العبارات التي توجهه في أن لا يتحرك باتجاه ما، قبل أن تكون مدروسة معهم.

حسن صبرا: هل تواصلت اللقاءات التي كانت تتم بينه وبين المسؤولين وخاصة الرئيس السوري؟

سعد الدين: عقدت عدة لقاءات بين المفتي الشهيد حسن خالد والرئيس حافظ الأسد، وآخرها بعد انقطاع طويل، هيء له ودام لساعات عديدة، دار الحديث حول مواضيع مختلفة ليس لها علاقة بالقضية اللبنانية لا من قريب ولا من بعيد وكان الشيخ حسن خالد يومها متضايقاً جداً لأن زيارته حسبما خطط كانت مخصصة للتكلم والتباحث في المواضيع التي تهم اللبنانيين والسوريين، وبعض الأمور التي كانت تحدث على الساحة اللبنانية، إنما كان الموضوع في ذلك الوقت غائباً تماماً عن هذا اللقاء، وعند الوداع وعلى الباب أمسك الرئيس حافظ الأسد بيدي الشيخ حسن خالد قائلاً له: (بيسوى يا سماحة المفتي قبل ما تعمل أي خطوة تخبرنا) وكأنه تحذير بألا يفعل شيئاً بمفرده، نعم.. يومها كان الشيخ خالد في أسوأ أيامه، كان يتوقع أن يلقى صدراً واسعاً، لأن الشيخ حسن خالد، لم ينطلق بعلاقته بسوريا من منطلق مصلحة شخصية وإنما انطلق إيماناً من عروبته وإسلامه، وبانفتاحه على هذا البلد الشقيق.

حسن صبرا: لماذا تحدثت عن أن هناك انقطاعاً بينه وبين سوريا؟ ولماذا حصل هذا الانقطاع؟ وكيف رتب هذا اللقاء؟

سعد الدين: الكل كان يعلم بالتجاوزات الكثيرة التي كانت تحصل في الشارع اللبناني، ضد المواطنين في الإطار السياسي.

حسن صبرا: أنت تتحدث عن الفترة ما بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٩؟

سعد الدين: حتى ما قبل ذلك، كانت العلاقة التي تربط الشيخ حسن خالد بالدولة السورية علاقة تحكمها مصلحة الشعب اللبناني ومصلحة العرب في تلك المرحلة.

حسن صبرا: وكان يرى أن هناك تجاوزات سورية؟

سعد الدين: عندما كان يرى أن هناك تجاوزات، كان يؤمن بأن عليه أن يبلغ عن هذه التجاوزات ويحاول الحد منها لأن المصلحة العامة لنجاح مساعي سورية لإعادة الوحدة اللبنانية وعودة المؤسسات، كما كنا نعتقد أن دور سوريا في لبنان دور إسعافي لإنقاذ لبنان من الطائفية ومن المناطقية، فإذا كان هذا هو المسعى أو الغرض الرئيسي من الوجود السوري في لبنان فلماذا هذه التجاوزات؟ ولماذا هذه الانتهاكات التي ترتكب باسم السعي في هذا الإطار؟

حسن صبرا: وهذا قبل نظام الوصاية؟

سعد الدين: نتكلم عندما ناشدوا سورية الدخول بين القوات المتحاربة على الأرض اللبنانية.

حسن صبرا: عودة إلى حواره مع السوريين... اللقاء الأخير، قال له الرئيس الأسد أنه «بيسوى قبل أن تعمل شيئاً أن تراجعنا»، كأنه ضابط مخابرات يوصي أحد اتباعه، ألا يفعل شيئاً إلا بأمره قبل هذا اللقاء حصل انقطاع، لماذا هذا الانقطاع بين المفتي الشهيد والرئيس حافظ الأسد؟ هل طلب مواعيد ولم تحدد له مع الرئيس الأسد أو مع نائبه؟

سعد الدين: حقيقة أن هذا الانقطاع بدأ منذ اغتيال الرئيس رشيد كرامي عام

١٩٨٧م.

حسن صبرا: ماذا حصل يبدو وكأن هناك صداماً حصل مع عبد الحليم خدام؟

سعد الدين: في حزيران/ يونيو ١٩٨٧ اغتيل الرئيس رشيد كرامي في أيام عصيبة، كان لبنان يتوقع نوعاً من حالة انتقالية إلى الأفضل.

حسن صبرا: كان هناك حوار بين كميل شمعون ورشيد كرامي وقيل أن هناك اتفاقاً بين الاثنين؟

سعد الدين: الساحة كانت مؤهلة لحل ما، لأن اللبنانيين يومها كما يقول المثل العامي: (يتمسكون بحبال الهواء) وكان هناك ثوابت إسلامية أعلنها المفتي الشهيد وبالاتفاق مع الإمام محمد مهدي شمس الدين، نعم في العام ١٩٨٢ أعلن الشهيد الثوابت الإسلامية العشر، بعد انتخاب الرئيس أمين الجميل، وكان هناك تجاوب من الرئيس أمين الجميل، بعد انقطاع طويل معه أصبح هناك فرصة للحوار وللحل في جو لبناني بمساعدة سورية، هذا الجو المطمئن دعا الشيخ حسن خالد إلى الخروج من لبنان والقيام بجولة عربية لتأمين الدعم لهذا الحل.

حسن صبرا: من زار؟

سعد الدين: زار بعض الملوك والرؤساء العرب، لوضعهم في هذا الجو الإيجابي طالباً منهم أن يساهموا بكل إمكاناتهم لدفع هذا الحوار، حيث زار السعودية ومصر والكويت والإمارات العربية المتحدة.

حسن صبرا: هل زار الأردن والعراق؟

سعد الدين: لم يزر العراق نظراً للخلاف «السوري-العراقي»، وهذا قسم من المشكلة العربية، وتجنباً للحساسيات، اغتيل رشيد كرامي، وكان المفتي خارج لبنان، قطع زيارته للسعودية وعاد إلى لبنان، وعند وصوله إلى المطار، كانوا يعلمون إنه يريد الذهاب إلى طرابلس للمشاركة في التشييع فطلب منه

أحد الأجهزة اللبنانية نقلاً عن الأجهزة السورية عدم الذهاب إلى طرابلس، وبعد إصراره كانت النصيحة الثانية، إنه يتم تأمين طائرة مروحية لنقله من الشمال، فأصر على الذهاب بالسيارة، ليقول لكل اللبنانيين بأن الأراضي اللبنانية هي أراض لكل اللبنانيين، وأن كل اللبنانيين المقاتلين هم أبنائي وهم إخواني وأنا على استعداد لمواجهتهم ولأثبت للعالم أجمع بأن اللبنانيين هم في صف واحد إنما بحاجة إلى من يدفع هذه المسيرة إلى الوحدة.

حسن صبرا: كلامه جاء من وحي ما يعتقده اتفاقاً بين الراحلين رشيد كرامي وكميل شمعون؟

سعد الدين: اعتقد أن هذا هو أولاً إيمانه لأنه لم يقطع كل القيادات المسيحية العقلانية منذ الحرب اللبنانية وحتى لحظة استشهاده، دائماً كان على تواصل تام، كان يقول: (بأن الحرب عليّ وعلى البطريرك صفير)، وكان يقول لنا: (أن هناك محاولات لاغتياله ولاغتيال البطريرك صفير، ولماذا تقصف «بكركي» و«دار الفتوى» في اليوم نفسه، أنا أفهم أن تقصف «بكركي»، ولكن من يقصفها ويقصف دار الفتوى هذا يعني بأن المصدر واحد) فغادر إلى طرابلس في سيارته وفوجئ على الطريق بعكس ما صوروا له بكل منطقة كان يمر بها، كانت الميلشيات المتحاربة تقف وتؤدي له التحية وتنزله بالقوة من سيارته وتكرمه أشد التكريم، وهذا أثار نقمة الأجهزة الأمنية لأن الشيخ المفتي حسن خالد فتح موضوعاً كان مطوياً وهو موضوع الحوار، وكان سلعة ليتاجروا بها ولتأجيج الحرب، وصل الشيخ حسن خالد إلى طرابلس ودخل منزل الشهيد رشيد كرامي، فوجئ بنائب الرئيس السوري عبد الحليم خدام واقفاً أمام زعماء المسلمين في لبنان (اللقاء الإسلامي) وهم قابعون في أماكنهم ورؤوسهم في الأرض وهو يحاضر بهم ويهددهم ويؤنبهم، ويقول لهم: (كيف تتجرؤون على اختيار الرئيس سليم الحص رئيساً للحكومة من دون الرجوع إليّ؟) وهنا جن جنون المفتي حسن خالد لأنه رأى في هذا المنظر الرهيب نهاية ليست للبنان بل نهاية للمبادئ والأخلاق والدين والعروبة ولكل

مفهوم تربينا عليه، فوقف وبأعلى صوته حذر خدام ومن أرسله بأن هذا الكلام لن يقبل به أبداً وأن هذا الموضوع هو موضوع داخلي يخص المسلمين واللبنانيين وبأنهم سيختارون من يشاؤون لرئاسة الحكومة، وأن هذا الكلام ليس موضعه اليوم ولأن بين أيدينا شهيد كبير، يجب أن نعلم لماذا قتل؟ ليس المهم أن نعرف من قتله بل يجب أن نعرف لماذا قتل الشيخ حسن خالد لم يكن يهاب من ذكر كلمة الحق.

حسن صبرا: ماذا رد خدام؟

سعد الدين: في هذه الواقعة سأل خدام المفتي خالد بتهكم: هل مررت على منطقة (حالات) يا شيخ حسن؟ هل عبرت سيارتك على دماء الشهيد رشيد كرامي؟ -كان يريد أن يؤنب والدي كيف مر براً وفتح باباً لم يكن يراد فتحه- هذا الانقطاع حصل في العام ١٩٨٧م بعد اغتيال رشيد كرامي عندها دخلت العلاقة بين الشيخ حسن خالد وسوريا وكل أجهزتها المظهر الصحيح أظهرت سوريا موقفها الحقيقي من الشيخ حسن خالد وأن الشيخ حسن خالد رجل حوار، رجل عيش مشترك رجل عربي لكن عروبته هي سوريا ومصر والسعودية أي أنها شاملة وهذا غير مقبول، لأن مفهوم العروبة عندهم أن تمر من سوريا وتقف في سوريا، كان الشيخ حسن خالد رجلاً لا يستطيع أن يضبط عروبته في مساحة ضيقة، وهذا هو بعده الذي تربى عليه، البعد الذي يتكلمون عنه، البعد الجغرافي والبعد التاريخي والبعد العربي وكانت هذه مهمته في الحياة كما كان يعتقد وكان يعتقد أن ما فرقه الأجنبي في الحدود كان يستطيع أن يثبته بالتواصل والتعايش والمشاركة والحوار.

حسن صبرا: فماذا حصل من مظاهر العداء السوري؟

سعد الدين: ومنها ابتدأت التهديدات، وإحدى النصائح المؤكدة، التي وصلت إليه قبل سنة أو سنتين من الاغتيال، إننا ننصحك بمغادرة لبنان وأن تسكن في فرنسا وأن تناضل من أجل قضيتك من هناك.

حسن صبرا: من الذي كان يحمل هذه النصائح؟

سعد الدين: المشتركون في الحوار معه، كان أحياناً يأتيه اتصال وعندما يسأل عن هوية المتصل يرد: (إحم إحم فهموه) -بلهجة سورية أو لبنانية- وأحياناً يرد المتصل بالقول: (قولوا له يغير والله نحنا بنحبه) هذه رسائل. وهناك رسائل أخرى، أحياناً عندما يعود المفتي إلى منزله وقت الغداء، كان يتم قصف المنزل، في منطقة الرملة البيضاء، أحياناً كان يذهب إلى مكتبه فتقصف دار الفتوى، فأراد أن يختبر هذا الأمر، فترك المنزل وذهب إلى دار الفتوى، فقصفت دار الفتوى، وترك دار الفتوى قبل موعد انتهاء عمله وتوجه إلى بيته، فقصف البيت، فعلم وقتها وتأكد أنه كان مقصوداً، وأعلن يومها: (إذا أردتم قتلي، فاقتلوني لماذا قتل الأبرياء؟).

حسن صبرا: هل أرسل إلى سوريا من يبلغهم أن هذا هو رأي الشيخ حسن خالد؟

سعد الدين: نعم.

حسن صبرا: من كان يرسل؟

سعد الدين: أرسل وراء قائد قواد الردع سامي الخطيب واصطحبه إلى دار الفتوى، وأطلعه على القذائف التي منها ما هو منفجر ومنها ما هو غير منفجر في ساحة الدار، وأطلعه على العبارات المكتوبة على القذائف وأثبت لسامي الخطيب، أن هذه القذائف ليست مرسلة من المنطقة الشرقية لبيروت وإنما هي قذائف سورية أو أدوات سورية.

حسن صبرا: ما هي واقعة الحديث الذي نقل على لسان السفير الكويتي أحمد الجاسم الذي قال فيه أن المفتي أخبرني وقيل أنها أدت إلى اغتياله؟

سعد الدين: في هذا الجو زار السفير الكويتي أحمد الجاسم سماحة المفتي في دار الفتوى وأخبره بما يحصل وبما حصل خلال الأسابيع الماضية وبأن القصف هو قصف مركز يطال دار الفتوى ويطاله شخصياً، وقال له: إن تقرير نوعية

القذائف ومصدرها موجود ومعروف من أين انطلقت؟ فأرجو أن تخبروا من هو بصدد قتلي بأنني مستعد للموت، ولكن ألا يذهب معي ضحايا أبرياء.

حسن صبرا: وكأنه يقول لهم لا تقصفوا بل اغتالوني وحدي.

سعد الدين: وكأنه يقول أنه حاضر للموت إذا مشيئة رب العالمين أن يموت...

حسن صبرا: ومع ذلك عندما استشهد، استشهد معه حوالي عشرة أشخاص وبينهم شقيق عماد الترك وإبراهيم الترك من أبناء المنطقة وآخرين، عندما تبلغ الشهيد حسن خالد أن يرحل من لبنان، ماذا كان رده؟

سعد الدين: كان رده قاسياً جداً قال فيه أولاً لن أغادر لبنان لأي سبب كان لأنني إذا أردت أن أناضل كما تقولون فإذا كان نضالي من أجل الشعب فيجب أن أكون بين الناس وأحس معهم في مشاكلهم وفي المصائب التي يعيشونها حتى أستطيع أن أعبر عنهم بكل حرية.

حسن صبرا: اغتيال الشهيد في ١٦ أيار مايو ١٩٨٩م خلال ما أطلق عليه «حرب التحرير» من عون ضد السوريين أو الحرب التي سميت بـ «حرب عون» هل كان هناك تواصل بين المفتي الشهيد وبين ميشال عون؟

سعد الدين: بعد تعيين الرئيس أمين الجميل للعماد ميشيل عون لتشكيل الحكومة نشأ كما نعلم جميعاً وضع شاذ وكان مؤسساً ومنذراً بتقسيم لبنان وكان هذا العمل يضايق سماحة المفتي كثيراً لأن نضاله الأساسي هو أولاً: عدم تدويل القضية اللبنانية. ثانياً: عدم القبول بتقسيم لبنان هذا نضاله منذ بداية الحرب فعندما ألفت هذه الحكومة، كان هو الإنسان العاقل الذي يتعاطى مع وضع ميشال عون وسليم الحص (أي الحكومتان التي تم تشكيلهما) بشكل يساعد على التخفيف من أي أزمة يمكن أن تحصل في بداية شرخ ما، أي أنه رجل حوار بين الاثنين.

حسن صبرا: هل اتصل بميشال عون؟

سعد الدين: هناك اتصالات بين الشهيد وبين ميشال عون، وكان هناك ترتيب ما لم يحصل بسبب اغتيال الشيخ الشهيد.

حسن صبرا: هل كانت هناك محاولات للقاء؟

سعد الدين: كانت هناك محاولات عديدة، كانت هناك اتصالات، كان هناك نوع من الارتياح لدى الشهيد -حسن خالد- على أن ميشال عون يمكن أن يكون هذا الرجل الوطني العسكري، الذي يمكن أن يلم الشمل ويكون رئيساً للجمهورية، لا مانع حيث أنه ابن مؤسسة عسكرية يمكن الحوار معه، وعندما جاء عهد ميشال عون، بدا له أن بيروت الكبرى ربما أصبحت وشيكة، التزم الاعتدال وأخذ يدعو إلى إنهاء الحرب، ونشر السلام خاصة في بيروت وإجراء الانتخابات الرئاسية، كان المفتي خالد يؤمن بالمؤسسات والقانون، كان حلمه أن يكون الإنسان اللبناني مرجعيته الدولة، وليس الزعيم فكان هذا متقارباً جداً مع العماد عون، ولكن وللأسف فاجأته الحرب الدائرة بين الجنرال والنظام السوري، وشعر بالارتباك والحيرة فلا يستطيع السير بركاب سوريا على حساب بيروت الكبرى، ولا هو يمكنه تأييد الجنرال عون تأييداً واضحاً وصريحاً مع اقتناعه الضمني بطروحاته وصدقيته.

حسن صبرا: هل كان يؤمن بدور المؤسسة العسكرية الوطنية اللبنانية في مواجهة الميليشيات؟

سعد الدين: كان أول من أنذر في بداية الحرب بالانتباه إلى المؤسسة العسكرية بأنها هي صمام الأمان الوحيد لعدم انهيار لبنان، ويومها طالب بمجلس عسكري من مختلف الطوائف حتى لا يصار إلى تقسيمه، ولكن في وقتها لم ينتبه أحد إلى هذه المشكلة.

حسن صبرا: كان هناك مشروع فلسطيني لتقسيم الجيش وهذا ما حصل، بالمناسبة هل حصل صدام بين المفتي الشهيد وبين المنظمات التي كانت تسيطر على لبنان؟

سعد الدين: لا شك بأن إيمان الشيخ حسن خالد بالقضية الفلسطينية هو الذي دفعه في البداية إلى نصرة ومساندة العمل الفدائي الفلسطيني إنما عندما تجاوز العمل الفلسطيني حد التدخل في القضايا اللبنانية الداخلية، اصطدم الشهيد حسن خالد مرات عديدة مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات -رحمه الله- شخصياً وأنذره بأن ما يفعله هو خطر ليس على لبنان وإنما على القضية الفلسطينية بشكل عام.

حسن صبرا: هل هدده الفلسطينيون؟

سعد الدين: الفلسطينيون ضايقوا الشهيد حسن خالد كثيراً.

حسن صبرا: كيف؟

سعد الدين: في تحركاته وأعماله وبعض أمور السياسية في لبنان وضايقوه عملاً، كانوا يظهرون له كل الود والاحترام، ولكن كانوا يرتبون له كل ما يضايقه في الخفاء.

حسن صبرا: كيف مضى الأيام الأخيرة من حياته وهو يتنقل من مكان إلى آخر، تحت القصف، هل جمعكم وأوصاكم بشيء؟ هل نبهكم إلى أنه قد يغتال؟ وهل كتب وصية سياسية أو شخصية على هذه القاعدة؟

سعد الدين: رحمه الله كان يعلم أن هناك محاولة لاغتياله ولكنه في الوقت نفسه كان يعلم أن الموت يحدده رب العالمين وكان يعلم أيضا بأن من سيحاول اغتياله سيكون شديدًا لدرجة أنه سيؤكد هذا الاغتيال.

حسن صبرا: لن تكون محاولة بل اغتيال.

سعد الدين: لن تكون محاولة، وعندما تنفذ العملية ستنفذ بطريقة كاملة لدرجة أن لا تترك أثرًا.

حسن صبرا: تمامًا كما فعلوا في عملية الشهيد الرئيس رفيق الحريري.

سعد الدين: تمامًا... كان هم الشيخ الشهيد حسن خالد ألا يذهب معه ضحايا، هذا

كان همه الوحيد، لأنه كان يعتقد بما أن المحاولة يمكن أن تنجح أو لا تنجح أن تؤذي المواطن البريء فكاد أن يستجديهم بأن يطلقوا عليه النار بدل المحاولة التي قد تطال العشرات من الأبرياء.

حسن صبرا: الشهيد في هذه الحالة وهو مدرك وواثق أنه سيقتل ألم يبحث عن نقطة لقاء لقطع الطريق على محاولة اغتياله مع السوريين مثلاً أو ألم يطلب حماية عربية من المملكة العربية السعودية وأصدقائه هناك من مصر ومن الكويت ألم يحاول فتح حوار؟

سعد الدين: أعتقد أنه وصل إلى نقطة لا نستطيع أن نقول أنه يئس، لا لم ييأس من رحمة الله كان متفائلًا بأنه سيكون هناك غد أفضل للبنان، إنما كان يعلم أن أي عمل في هذا الاتجاه لا يجدي ولا يفيد بل على العكس سينشغل بأمور دنيوية ستبعده عن الواقع الذي يعيشه.

حسن صبرا: هل تعتقد أنه كان يخشى في تلك اللحظة أن يقدم تنازلات عن أفكاره ومبادئه؟

سعد الدين: أبدًا لأنه كان يعلم كل العلم إذا ما حاول الحوار كان الرد التنازل وهو لم يكن ليتنازل قيد أنملة عن حق اللبنانيين في عيشهم الكريم.

حسن صبرا: ألم يتصل به -مثلاً- اللواء غازي كنعان؟

سعد الدين: أبدًا كان هناك شبه انقطاع بالعلاقة.

حسن صبرا: هل كان عندما تحصل تجاوزات يتصل بالسوريين ولا يجيبونه هاتفياً مثلاً أو يرسل أحدًا ولا يستقبلونه؟

سعد الدين: كان دائماً حريصاً على علاقته مع كل المسؤولين سوريين وغيرهم ويحكم هذه العلاقة كما ذكرنا الواقع اللبناني ومصالح اللبنانيين، لم يكن يتصل بالسوريين أو بغيرهم لمصلحة شخصية أو لمأرب خاص أو لوضع لا سمح الله خارج عن إطار مصلحة اللبنانيين جميعاً.

حسن صبرا: البلاد العربية كلها تقريباً حذرت الرئيس الشهيد رفيق الحريري قبل اغتياله هل يجرى تحذير المفتي الشهيد حسن خالد عربيًا؟

سعد الدين: لا أعتقد، هناك معلومات وصلت إليه من جهات عربية، ولكن غير رسمية، بأن هناك محاولات لاغتياله، وكانت الإشارات والدلائل المادية، لم يهم الاتصال ولا الرسائل ولا التحذير، كان المفروض على الشيخ حسن خالد أن يقطع اتصاله بأمين الجميل والبطريرك صفير، ويقطع اتصاله بميشال عون وبالعيش المشترك... كان الشيخ حسن خالد يتعلق بحبال الهواء، من هو الإنسان الذي يستطيع أن يساهم معي في وحدة الصف الوطني، كان الشيخ حسن خالد لا يتردد في الاتصال به وفي الجلوس معه لينشئ حواراً ما أو حالة ما. كانوا يريدون من الشيخ حسن خالد أن يقبع في منزله وأن يثبت أول أيام رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى. وإذا قيل له أجل العيد ليومين كان المفروض عليه أن يسمع الكلام ويؤجله. وهذه ليست من شيمه وليست من تربيته لذلك كان مؤهلاً ومستعدًا للموت لأنه لم يتنازل عن هذا الإيمان، لأن هذه مسؤولية دينية. وأنا قلت لكم أن وصوله إلى منصب الإفتاء في ذلك الوقت لم يحمل الفرحة له كانت عبئاً عليه كان يتأفف من بعض التصرفات التي كنا نعتبرها عابرة وكان هو يعتبرها مصيبة.

حسن صبرا: لنتكلم عن المفتي بين أسرته، هل جلس إليكم المفتي حسن خالد في تلك الفترة الحرجة التي كانت تصله فيها تهديدات هاتفية أو رسائل مباشرة، وقال لكم: استدعوكم لأنني معرض للاغتيال؟ هل قال لكم: من الذي يهدده هل ذكر أن سوريا التي ستغتاله؟

سعد الدين: قلنا الإيمان يحتم على الإنسان أن يقدر ما سيحصل، فكان يقدر أن هناك محاولات وأن إحداها ستكون النهاية لأنه كان يزعج الكثيرين ممن لم يرغبوا بالصيغة التي ينادي بها في أيامه الأخيرة، كنا نشعر بأنه في صفاء تام مع نفسه ومع ربه ومعنا، كان يقوم بكثير من الأمور في البيت لإرضاء والدتي

لأول مرة كان يعمل أشياء غريبة، كان يغسل الصحون مثلاً هو هذا الرجل الذي لا يجد عيباً في أن يكون إنساناً عادياً، ولكنه في ذلك الوقت أشغاله لم تكن تعينه على أن يقوم بمثل هذه الأعمال، ولكنه كان حريصًا في آخر ثلاثة أيام من حياته وهذه لا أحد يعلمها على أن يقوم بغسل الصحون لإرضاء والدتي لتقول له: أطال الله في عمرك كان ينظف السجاد مثلاً واستغربنا جميعًا ما هذا الذي يفعله وكان يتمشى بيننا ويذكرنا أنه ربانا على الصدق وعلينا أن نحافظ على الصدق ويقول: ربيتكم على الإخلاص فحافظوا على الإخلاص ربيتكم على الإيمان فكونوا مؤمنين كان يذكرنا بالصلاة وبمسيرته ويسألنا: هل أخطأت معكم في مكان ما؟ إذا أخطأت سامحوني.

حسن صبرا: دمعت عيناك يا أبا حسن.

سعد الدين: الحمد لله وكان يوصينا دائمًا أدوا زكاة مالكم، لأن هذا المال لن يساعدكم إلا إذا نظفتموه، لدينا منزل في منطقة «عرمون» وكان حريصًا على أن يجمع العائلة كل أحد، وقبل اغتياله بيومين جمع العائلة كلها شقيقاتي وبعولهن خالاتي وعماتي، جمعهم في «عرمون» وقام بصنع حلوى الكنافة بيديه، ووقف معهم يتحدث في أمور الحياة، ودور الإنسان في هذه الحياة، كيف يموت الإنسان ويكون راضياً.

حسن صبرا: كأنه خطبة وداع.

سعد الدين: ردد كثيرًا، كيف يموت الإنسان ويكون راضياً؟ واستشهد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وقف ناظرًا إلي بيروت وتأملها، وقال: (هذه المدينة حافظوا عليها في مبادئها لا تغيروا فيها ولا تقاليدها) وكان هذا يوم الأحد، ويوم الاغتيال ترك مفاتيحه في خزانة والدتي، وفيما بعد اكتشفتها.

حسن صبرا: عادة، كان يأخذها معه.

سعد الدين: مفاتيح منزله وكان يضعها في جيبه ويوم الاغتيال ترك مفاتيحه في البيت.

حسن صبرا: عامدًا.

سعد الدين: أكيد وإلا لماذا يتركها في المنزل بعد الاغتيال؟ فتحت والدتي خزانتها فوجدت المفاتيح في مكانها، وعكس الكثير من الأقوال، الشيخ حسن خالد لم يحترق في سيارته، وجثته لم يطلها أي أذى، إلا تلك الشظية التي اخترقت رأسه وكانت قاتلة، وأخرجناه من السيارة وما زلت أحتفظ بساعته وجواز سفره.

حسن صبرا: لماذا كان جواز سفره في جيبه؟

سعد الدين: كان يستعد للذهاب إلى المملكة العربية السعودية، لتوكيد ما طلبه من العاهل المغربي لإقامة قمة عربية من أجل لبنان، وبالمناسبة لقد اغتيل المفتي خالد قبل عشرة أيام من انعقاد القمة العربية التي انعقدت في الدار البيضاء، وكان رئيس المؤتمر والداعي إليه العاهل المغربي الحسن الثاني من أكثر المؤتمرين حزناً على الشهيد الكبير، إذ قيل لنا أنه صعق عندما بلغه اغتيال المفتي الرجل السمح الذي كان أحد أبرز رموز الاعتدال في لبنان، والداعية القوي لإعادة اللحمة إلى شعبه وأرضه، كما حزن الملوك والرؤساء العرب لأن معظمهم إذا لم نقل كلهم، عرفوا الراحل الكبير والتقوه مرات عديدة، وعرفوا فيه الاعتدال وبعد النظر في الأمور الوطنية وساعيًا قويًا إلى إعادة السلام والوحدة في لبنان، وهذا ما كان يحكم علاقته بالجميع، المبادئ التي ترسي دعائم لبنان وهذه مهمته في الحياة، لأنه لم يكن يطلب شيئًا لنفسه، وفي هذا الإطار كان يحاول دائمًا المحافظة على علاقات جيدة مع الجميع إلا أن علاقته في سورية وبقياداتها دخلت في تجارب كثيرة ومتنوعة.

حسن صبرا: هذه القمة التي حصلت وأدت إلى اللجنة الثلاثية ثم اتفاق الطائف؟

سعد الدين: نعم ووصلت الرسالة بعد اغتياله بيوم واحد، ووافق ملك المغرب على استقبال قمة عربية لهذا الغرض، ويومها وقف الملك الحسن الثاني كما أذكر وقال: لقد خسرنا رجل الحوار ورجل... وداعي سلام وإيمان في أحلك

الظروف التي يعيشها لبنان، وتعيشها الأمة العربية لذلك ندعو اللبنانيين أن يحذوا حذوه وأن يمشوا على مسيرته وأن يمشوا على خطاه، لأن لبنان لن يستقيم إلا بهكذا رجال.

حسن صبرا: عند اغتياله هل خرجت تظاهرات تشييع؟ وهل حمل المتظاهرون مسؤولية علنية لسوريا عنه؟

سعد الدين: كان هناك غضب عارم، ونحن نعلم أن اغتيال الشيخ حسن خالد في وقتها تم في ظل الوجود السوري، أي الوجود الأمني السوري الذي كان في ذروة سيطرته على الأمور.

حسن صبرا: كانت هناك حرب علنية في بيروت بين عون وبين سوريا.

سعد الدين: كان المفروض أن يحمل أحدهما المسؤولية.

حسن صبرا: لماذا لم يحمل الشارع المسلم الذي كان يشيع المفتي الشهيد ميشال عون مسؤولية الاغتيال؟

سعد الدين: إن التاريخ الذي كان يحكم علاقة الشيخ حسن خالد بالسوريين، كان واضحاً الشارع كله كان يعلم بأن السوري لا يتوافق مع مواقف الشيخ حسن، فلما حدث الاغتيال كان من الطبيعي جدًا أن توجه أصابع الاتهام إلى سوريا، وفعلاً يوم اغتيال الشيخ حسن خالد آلاف الأشخاص اعتقلوا الذين مشوا وساروا في الجنازة، بعض الناس رفعوا أعلاماً لم توافق عليها سوريا، مثل: أعلام المرابطين والحركات السياسية التي كانت على الأرض، إنما الكم الهائل من الناس الذي سار في الجنازة ولكن يجب أن نتذكر أن الشيخ حسن خالد كان ضد الميليشيات السنية قبل غيرها، لأنه كان يعلم أن هذا السلاح هو سم قاتل يقتل صاحبه قبل أن يقتل غيره.

حسن صبرا: هل تعتقد أن أحداً منهم مازال موجودًا في السجون السورية؟

سعد الدين: لا أشك... اعتقد أن هناك من هو معتقل في السجون السورية.

حسن صبرا: هل اتصل أحد من المسؤولين الأمنيين السوريين بكم بعد استشهاد المفتي حسن خالد؟

سعد الدين: لم يتصل أحد، وبعد اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري جاء نائب الرئيس عبد الحليم خدام ليؤدي واجب العزاء، ولم يأت أحد رسمياً إلى دار الفتوى، جاء الكثير من الشخصيات السورية مثل: غازي كنعان وغيره، أما إلى منزلنا فلم يأت أحد.

حسن صبرا: كيف فسرتم هذا الأمر، هل رفضتم استقبال أحد من المسؤولين السوريين كما رفضت أسرة الرئيس الحريري استقبال أحد من المسؤولين السوريين؟

سعد الدين: في الوقت الذي اغتيل فيه الشيخ حسن خالد كانت بيروت لا تتحمل أي حركة أو أي ضغط، وكنا على دراية بأن لا نحمل بيروت أكثر، لأننا واجهنا يوم الجنازة اعتقال الكثيرين، وأي موقف خطأ كان يمكن أن يسبب لأهالينا وعائلاتنا الكثير من المآسي التي كنا نريد أن نتجنبها.

حسن صبرا: خسرتم الشهيد المفتي وسكتم؟

سعد الدين: سكتنا لأننا علمنا بأن أي مطالبة بأي شيء لن تجدي نفعاً وأنك كمن ينفخ في الهواء.

حسن صبرا: ولكن حصل بعد ذلك اتصالات بينك وبين المسؤولين السوريين، هل جربت أن تفتح حواراً حول هذا الموضوع معهم؟

سعد الدين: الذي جعل الموضوع السوري يظهر إلى السطح أنني دخلت إلى الانتخابات عام ١٩٩٢م وأخذت شعار (قدرك الشهادة وقدرنا متابعة المسيرة) هذا الشعار أزعج الكثيرين.

حسن صبرا: اعتبر استفزازاً للسوريين.

سعد الدين: ووصلتني رسائل عديدة ومنها كيف تعتقد أنك ستكون نائباً وأنت تستفز سوريا، فقلت لهم: أنا صادق بهذا الشعار ولا أعني به شيئاً، لا شك بأن

قدر الشيخ حسن خالد الشهادة، ولا شك بأنني سأتابع المسيرة مهما كلف الثمن، مع توصية كبيرة لوالدي بأن لا أدخل عالم السياسة لأنه كان ينزعج كثيراً من العمل السياسي، حيث أنه وجد فيه الكثير من الممالأة والكذب والرياء، فكان يحذرني من هذا ويقول لي: إذا كنت قادراً على أن تعمل في السياسة من الباب المختلف تماماً فأنا معك، ولكن ستتعب كثيراً وهذه وصيته لي وأنا ما زلت محافظاً عليها، لذلك عندما دخلت المعترك السياسي عام ١٩٩٢م وأسقطت، جرت اتصالات عديدة معي وأرسل لي بعض الذين يرسلون عادة، إنه لماذا لا تحسن علاقتك مع الأخوة السوريين وكانوا ينفون عنهم تهمة اغتيال والدي، ويذكرون لي بأنني أثبت وجودي في بيروت وأنني من القيادات، فحسن العلاقة لأنهم يستطيعون أن يؤمنوا لي الانفتاح على الآخرين، وكان ردي دائماً أنه لا مانع من التواصل مع الناس، ولكن ضمن إطار مفاهيمنا وتقاليدنا وفعلاً حصلت لقاءات عديدة مع نائب الرئيس السوري عبدالحليم خدام.

حسن صبرا: هل حاول أن ينفي أمامك مسألة اغتيال والدك الشهيد؟

سعد الدين: عدة مرات نفى قطعاً علاقة سوريا باغتيال الشهيد حسن خالد، وطمأنني ولكن كنت أشعر بأن هناك نوعاً من الامتعاض من كلمة بيروت، فعندما كنا نقول له: (نحن البيارته) كان يرد: لا يوجد شيء اسمه بيروت.

حسن صبرا: لم يكن يحب البيارته؟

سعد الدين: كان يعتقد أن كل إنسان يسكن بيروت هو بيروتي، فأجبته: أن البيروتي لا أعني أنه الإنسان السني المتعصب، وإنما الذي يعتبر أن بيروت عاصمة له، ويؤمن بقضية العيش المشترك والتواصل مع الآخرين، هذا ما أعنيه، وليس المتعصب الذي يفكر بشكل خارج عن الإطار العقلاني، البيروتي هو الإنسان المثقف المتعلم المنفتح، ولاحظت حساسيتهم بهذا الموضوع.

حسن صبرا: هل قابلت الرئيس بشار الأسد؟

سعد الدين: قابلت الرئيس بشار الأسد قبل استلامه منصب رئاسة الجمهورية.

حسن صبرا: ألم يتم التطرق إلى موضوع استشهاد الشيخ حسن خالد؟

سعد الدين: على العكس هو الذي بدأه، واعتبر أن الشهيد حسن خالد من الشخصيات اللبنانية العربية المتميزة التي لم يخسرها لبنان فحسب، وإنما خسرتها سوريا وخسرتها لبنان في الوقت الذي كان بحاجة إلى هذا النوع من الشخصيات التي كانت تساعد، في هذا الوقت كان الوضع حساساً جداً وكان المطلوب إعادة الشخصيات التي خسرها لبنان واليوم مطلوبة أكثر.

حسن صبرا: هل جرت مقارنة يوماً ما في الحوار بينك وبين عبد الحليم خدام، بين اغتيال الشهيد كمال جنبلاط؟ وكيف تعامل السوريون مع وليد جنبلاط؟ وماذا قالوا له؟ وبين اغتيال الشيخ حسن خالد وماذا قال لك السوريون؟

سعد الدين: عبد الحليم خدام قال لي: أنه ليس لسوريا علاقة باغتيال الشهيد حسن خالد، لكن خدام كان منزعجاً من بعض التحركات التي يقوم بها وليد جنبلاط، وكان يتهم فيها السوريون باغتيال والده الشهيد كمال جنبلاط، وكان هذا يزعج خدام كثيراً، حتى أنه في وقت من الأوقات قال لي خدام: أنه أرسل لجنبلاط الذي يتهم السوريين باغتيال والده: نعم، قتلنا والدك، وماذا تريد بعد، اسكت أحسن لك.

حسن صبرا: كان خدام يقول لك بألا تمشي على طريق وليد جنبلاط؟

سعد الدين: ربما بطريق غير مباشرة، وحقيقة أنا لم أفتح هذا الموضوع معه بتاتاً.

حسن صبرا: بالإجمال كيف تصف علاقة المفتي الشهيد بالسوريين؟

سعد الدين: كانت علاقته بالرئيس الأسد، ونائب الرئيس السوري خدام قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان جيدة جداً وكانت علاقة جميع القوى السياسية الأخرى معهم سيئة، فعند حصول الاجتياح تم القضاء على الفلسطينيين، وتم سحب سلاح المرابطين، وتم تزويد حركة أمل والحزب الاشتراكي بالسلاح

وابتدؤوا بالهجوم على بيروت الآمنه بدون أي منطق أو سبب، ومن هنا ساءت العلاقة بين المفتي خالد من جهة وبين السوريين والميليشيات من جهة أخرى، كان المفتي خالد يدافع عن حقه، حق المواطن وكرامته، حق المخطوفين والإفراج عن المحتجزين، حق الطلب بفتح كل الملفات بلا تمييز، والضرب بيد من حديد على يد كل غاصب وجانٍ، حق يرفع الظلم عن المواطنين الذين ما يزال بعض الممارسات الشاذة ترهق كواهلهم، فتهجر البعض، وتكره البعض على بيع أملاكه، حق رفع المظاهر المسلحة غير الشرعية التي تمتهن كرامة المواطن والوطن وتتحدى القوانين والأعراف.

حسن صبرا: أنت كابن الشهيد وكسياسي وإنسان لمن تحمل مسؤولية اغتيال الشهيد حسن خالد؟

سعد الدين: الذين كانوا يريدون اللاعقل، اللامنطق، اللاحوار الذين كانوا يريدون وطناً ممزقاً ليس فيه مؤسسات ولا قوانين بل زعامات تتبع الغريزة وليس العقل، هم المسؤولون عن هذا الاغتيال، نحن باعتقادنا كعائلة بأن كل شخص هو بريء حتى يثبت العكس، لكن عند الاغتيال كان المسؤول المباشر عن أمن بيروت هم الحزب التقدمي الاشتراكي وحركة أمل والمخابرات السورية، ونحملهم كامل المسؤولية بعد تأمين الحماية له، وعند استشهاده لاحظنا أن كثيراً من الشباب المناصرين له تم اعتقالهم دون أي تهمة، أو سبب وتم إرسال نصائح لنا بعدم الخوض في السياسة لأنهم كانوا يريدون أن ينسوا خطه، خط الحقيقة والمواجهة والمنطق والوحدة والاعتدال والمساواة والعدالة بين الناس، أليس هذا مستغرباً؟

حسن صبرا: هل كلمة توجهها إلى روح الوالد؟

سعد الدين: بعد ١٦ عاماً من الاغتيال نقول للمفتي خالد، وينك اليوم؟ نفتقد فيك الحكمة، نفتقد فيك إنصاف المظلوم وإنعاش الفقير، نفتقد فيك المؤسسات والقوانين وليست الغرائز والمزاجات اللاعقلانية، أيها الشهيد الكبير كنت

الشاهد الكبير على الجرح النازف، وصاحب المواقف الوطنية اليقظة، واغتيالك زحف بنا إلى الهلاك والعار كل العار أن يبقى الوطن رهينة أهل الشر والحقد وأن تبقى أعيننا معصوبة بالعمى عن الحقيقة، والبحث عن الذات، إن الذين اغتالوا شخصه عليهم أن يدركوا أن مثل هذا التراث الروحي والوطني هو حي في نفوسنا ولن يستطيع أحد أن يغتاله أبداً، ونحن نشيد بهذا التراث، لا لنوفي فقيدنا العزيز بعض حقه علينا فحسب بل لنذكر مواطنينا بأن وعيهم روح هذا التراث، والتزامهم بمبادئه يمكن أن يوجههم نحو بداية جديدة للبنان جديد.

ما أرخص دماءنا؟

قتل رمز أهل السُّنة في لبنان بطريقة همجية غادرة ، والذين قتلوه معروفون في الإطارين العربي واللبناني، واللجنة السداسية المكلفة من قبل الدول العربية رأت وسمعت ونقلت ما فيه الكفاية لإدانة الدولة العربية المتهمة... ثم ما الذي حدث بعد اغتيال مفتي لبنان ورمز المسلمين فيها؟

هل تحركت جامعة الدول العربية من أجل عقد مؤتمر قمة للنظر في هذه المسألة الخطيرة؟

وهل عقد مؤتمر للعلماء المسلمين العرب من أجل اتخاذ الموقف المناسب؟

وهل تداعى مجلس الأمن الدولي من أجل التحقيق في هذه الجريمة، وفرض العقوبات على كل من تثبت إدانته، أي كما حدث في مسألة اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري، وأنا لا أقلل من أهمية الحريري، ولا من أهمية التحقيق الدولي من أجل كشف المجرمين، واتخاذ العقوبة المناسبة ضدهم، ولكن الشيخ حسن خالد ليس أقل شأنا لا من الحريري ولا من غيره. لم يحدث أي شيء في هذا الصدد، لا من المسلمين في لبنان ولا من أحد خارج لبنان.

وفي المقابل لقد تحرك لبنان وإيران وشيعة العالم من أجل اختفاء رئيس المجلس الأعلى للشيعة في لبنان موسى الصدر، فعلى مستوى لبنان توترت العلاقات بينها وبين ليبيا، وأغلقت السفارة في بيروت، وحاول القذافي استرضاء الشيعة، فتبنى المعارضة الشيعية لنظام صدام في العراق، وقدم أسلحة وقطع غيار لإيران في حربها مع العراق...

ولكن هيهات أن يغفروا له، أو أن يصفحوا عنه، وما يزالون يحتفلون سنوياً في اليوم الذي اختفى فيه موسى الصدر، مع أن اختفاءه ليس كاغتيال الشيخ حسن خالد، فالأول خريج كلية الفلسفة من جامعة طهران، وأرسله الشاه للبنان لتنظيم

أمور الشيعة، وبمقاييس الشيعة، فهو لا يعتبر مرجعاً من مراجعهم العلمية، ومن ثم فالقذافي صديق من أصدقائه، وكان يقدم له مساعدات سخية، ويقال أن خلافا وقع بينهما حول هذه المساعدات، وحول غدر الصدر بوعد قد أعطاه للقذافي التزم بموجبه بمناصرة منظمة التحرير. أما حسن خالد فهو عالم متمكن في علمه، بعيد في عمله عن أساليب السياسيين الملتوية، مترفع في أخلاقه عن خدمة هذا النظام أو ذاك.

هذا بالنسبة للمرجع الشيعي، أما مراجع النصارى، فكما قلنا فيما مضى: كان نظام دمشق يعرف من يحميهم، ورغم معارضة البطريرك صفير لهم، فقد كانوا يعرفون أنه خط أحمر لا يجوز اختراقه.

أرأيت أخي القارئ كم هي دماؤنا ودماء مراجعنا وعلمائنا رخيصة، ودماء غيرنا غالية وغالية جداً، وصدق القائل:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول: معاناة أهل السنة	
أولاً: اغتيال الشيخ حسن خالد	٢٢
ثانياً: فتنة الأحباش	٢٤
ثالثاً: أحداث الضنية	٢٨
رابعاً: مذابح جماعية	٣١
خامساً: تجفيف المنابع	٣٣
سادساً: أجهزة الحكم	٣٦
الفصل الثاني: النصيريون وحلفاؤهم	
الصنف الأول: البعثيون	٤٣
الصنف الثاني	٤٧
أولاً: الناصريون	٤٧
ثانياً: أحزاب الجبهة التقدمية	٤٨
ثالثاً: منظمة التحرير الفلسطينية	٤٩

الفصل الثالث: تجربة الحريري مع النظام النصيري

نبذة يسيرة عن حياة الحريري ٥٣
لبنان في ضمير الحريري ٥٧
أولاً: المحور السوري ٦٢
ثانياً: المحور الخيري ٦٤
المشهد الأول ٦٧
المشهد الثاني ٦٨
ثالثاً: محور إعادة إعمار لبنان ٧٢
١- تنظيف بيروت ٧٣
٢- إعادة بناء الوسط التجاري ٧٥
الخدمات التي قدمها الحريري للنظام السوري ٧٨
أولاً: اتفاق ١٧ أيار ٧٨
ثانياً: الاتفاق الثلاثي ٨٠
ثالثاً: الحريري والمقاومة ٨٦
ولي على هذه النقول ملحوظتان ٨٨
رابعاً: سكوته على المظالم التي لحقت بأبناء طائفته ٨٩
ويبقى هو المتهم ٩١
شهادة نهاد المشنوق ٩٢
مقتطفات من أقوال الحريري ٩٤

الفصل الرابع: لماذا قتلوا الحريري

لماذا قتلوه؟ ١٠١
١- أقوال نهاد المشنوق ١٠٥
٢- أقوال رضوان السيد «الحريري والسنة والمستقبل» ١٠٦
٣- أقوال عبد الحليم خدام ١١١

الفصل الخامس: قصة اغتيال المفتي

قصة اغتيال المفتي ١١٥
رواية سعد الدين خالد ١١٧
ما أرخص دماءنا ١٣٨
الفهرس ١٤١